شرح الصلاة

للعلامة الشيخ محسن قراءتي

جمعية المعراج
لإقامة الصلاة
علم وخبر ١٧٣٠

شرح الصلاة

جمعية المعراج
لإقـامـــة الـصـــلاة
علم وخبر ١٧٣٠

لبنان - الضاحية الجنوبية - جادة السيد هادي نصرالله
بناية اللؤلؤة - ط٦ - جنب مجمع سيد الشهداء عليه السلام
هاتف: 00961 1 275681

www.assalat.org
Email: info@assalat.org

الـــكـــتـــاب:	شرح الصلاة
الـــكـــاتـــب:	العلامة الشيخ محسن قراءتي
تعريب وإصدار:	جمعيّة المعراج لإقامة الصلاة.
نـــشـــر:	جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
الطبعة الأولى:	شهر ربيع الآخر ١٤٣٦هـ - شباط ٢٠١٥م

شرح الصلاة

العلامة الشيخ محسن قراءتي

جمعيّة المعراج لإقامة الصلاة

مقدّمة الجمعيّة

عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال : «**لو كان على باب دار أحدكم نهر فاغتسل منه في كل يوم خمس مرات، أكان يبقى في جسده من الدرن (الوسخ) شيء؟ قلنا: لا، قال:«فإن مثل الصلاة كمثل النهر الجاري، كلما صلى صلاة كفَّرت ما بينهما من الذنوب»**.

إنَّ إدراك معاني الصلاة من أقوال وأفعال يساهم بشكل رئيسي في تحقيق بركات الصلاة وأثارها من طهارة للنفس، وإزالة ما يعلق بها من الدنيا وشواغلها، لذا دأبت جمعية المعراج لإقامة الصلاة على إعداد وتنفيذ برامج تهدف إلى بيان معاني الصلاة، ومن ضمن هذه البرامج إعداد وإصدار الكتب اللازمة في هذا المجال.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم من تأليف سماحة العلامة الشيخ محسن قراءتي أصدره ونشره باللغة الفارسية، وتعميماً للفائدة قمنا بتعريبه وإصداره تحت إسم «**شرح الصلاة**»، باعتباره محققاً للغرض المطلوب، فهو كتاب شامل مبسط يُبيّن أبعاد الصلاة وفوائدها، منافعها وآثارها بأسلوب سلس يتناسب مع الأذواق المختلفة، وينتفع به ذوو المستويات المتفاوتة، كما أنه يجمع بين أبعاد الصلاة الروحية، التربوية، الإجتماعية وغيرها، مضافاً إلى

اشتماله على بيان معانيها، كما إنه يتدرج في العرض لمطالبه من بيان مقدمة حول العبادة والعبودية ليتعرض تفصيلاً بالنحو المناسب لكل واجبات الصلاة وأجزائها، كما يتميز هذا الكتاب بطريقة العرض الشيّقة التي تأخذ القارئ إلى عمق المعنى.

على أمل أن نكمل سلسلة النشر لكل الإصدارات المحققة لغرض إقامة الصلاة وتأصيلها في سلوك المؤمنين.

جمعية المعراج لإقامة الصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة[1]

تتوقّف إقامة الصلاة بالطريقة العظيمة التي تستحقّها هذه الشعيرة الدينيّة، على مجموعة من الإجراءات منها نشر بعض الكتب والمقالات التي تبيّن أهميّة الصلاة وتكشف عن بعض أسرارها ودلالات أفعالها.

هذا ولكنّ نشر ثقافة الصلاة في المجتمعات الإسلاميّة، يتوقّف على إجراءات تختلف من بلدٍ إلى بلدٍ، بحسب ظروف البلاد وأوضاعها الاجتماعيّة والثقافيّة. وقد شهد المجتمع الإسلاميّ في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم انتشار مثل هذه الثقافة حتّى تحوّل مكان الصلاة إلى مكانٍ لكثير من الأمور الاجتماعيّة مثل: القضاء، والتعليم، والدعوة، والإعلام، والتجمّع للانطلاق إلى ساحات الجهاد، ومأوى المهاجرين، ومركز مساعدة الفقراء، بل وحتّى عقود الزواج كعقد السيّدة الزهراء عليها السلام.

(١) مقدمة النسجة المعرّبة من المؤلف.

ممّا يروج ثقافة الصلاة:

ومع تغيّر الأوضاع الاجتماعيّة في عصرنا الراهن، ثمّة اقتراحات يمكن تقديمها لترويج ثقافة الصلاة في المجتمعات المعاصرة، منها:

١. نشر صور عن صلاة الجماعة بإمامة شخصيّات مرموقة ومحبوبة اجتماعيًّا.

٢. إقامة الرياضيّين صلاة الجماعة في أماكن عامّة مثل الملاعب الرياضيّة ونشر صورها.

٣. اختتام الاجتماعات العلميّة والثقافيّة كالمؤتمرات والندوات بصلاة الجماعة.

٤. الدعاء بعد صلاة الجماعة للمرضى الذين لا يقدرون على المجيء إلى المسجد، وهذا يدعو أقاربهم إلى المشاركة طمعًا بتذكير المصلّين بالدعاء لمرضاهم.

٥. تشجيع الشباب على الزواج من المصلّيات المتديّنات المواظبات على الصلاة في المساجد.

٦. إقامة الولائم ذات الطابع الدينيّ في المساجد مثل طبخ العقائق وما شابه.

٧. عقد احتفالات تكريم الطّلاب المتفوّقين في المساجد وتعليق صورهم في المساجد.

٨. تولّي الشباب ذوي الأصوات الحسنة بعض الأنشطة المسجديّة مثل الأذان والإقامة.

٩. تشجيع الشباب على كتابة مقالات قصيرة وقراءتها في المساجد على المصلّين.

١٠. تشجيع الأطباء ذوي الخبرة والراغبين في الخدمة العامّة على معاينة المصلّين مجّانًا.

١١. تأسيس صناديق للقرض الحسن في المساجد وتخصيص ميزانيّاتها لإقراض المصلّين، عملًا بقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، ليعيش المصلّون هذه الحالة.

١٢. تحويل المسجد في بعض الأوقات إلى مدرسة لتعليم الطلّاب الذين يحتاجون إلى دعم تعليميّ؛ ليشعر الجيل الشابّ أنّ المسجد محلٌّ لحلّ مشاكله التعليميّة.

١٣. فتح أبواب المساجد ليلًا نهارًا واستغلال الأوقات في المطالعة والنقاش وعقد اللقاءات، بطريقة لا تُزعج المصلّين.

١٤. جمع زكاة الفطرة يوم عيد الفطر في المساجد وتسليمها إلى إمام المسجد ليتولّى توزيعها على الفقراء من المصلّين ليُسْهم المسجد في التخفيف عن كاهل الفقراء.

١٥. التزام إمام الجماعة بالحضور اليومي المنظّم إلى الصلاة؛ بل زيادة أوقات حضوره في المسجد عن أوقات الصلاة.

١٦. تكريم الجيل الشابّ في المساجد يحوّل الصلاة ومكانها إلى محلٍّ محبّب إلى نفوس هذا الجيل.

١٧. تقديم هدايا من المسجد بواسطة الإمام واللجنة المشرفة على إدارة المسجد، إلى المتزوّجين الجدد من جيران المسجد؛ وهذا يربط الزوجين بالمسجد والمصلّين ويشجّعهما على التردّد إلى المسجد.

١٨. عيادة المصلّين المرضى الذين يتغيّبون عن الصلاة يشدّ أواصر العلاقة بين المصلّين.

ما يقرّب الصلاة من أعماقها:

تقرب إقامة الصلاة من معناها الواقعيّ ومن الحالة التي يريدها الله لها:

١. إذا لم يكتفِ المصلّون بالصلاة الظاهريّة وأدّوها دون الالتفات إلى الكمالات التي تترتّب عليها.

٢. إذا لحظت الأموال والميزانيّات التي تُنفق على النهي عن المنكر على تأمين الظروف المساعدة على إقامة الصلاة.

٣. إذا صُرفت بعض الأموال التي تُنفق على الكتب وغيرها من الأعمال التي تهدف إلى بناء الإنسان، على الصلاة والاهتمام بإقامتها.

٤. إذا خُصّص بند من الميزانيّات المخصّصة للأعمال الثقافيّة للصلاة وما يرتبط بها.

٥. إذا التفت الفنّانون والناشطون في الحقل الثقافيّ وعملوا على بيان أسرار الصلاة بطريقة تقرّبها من أذهان الناس وقلوبهم.

إذا فعلنا هذه الأمور جميعًا نقترب قدر المستطاع من الحالة التي يريدها الله لإقامة الصلاة؛ وإلا فإنّنا نسير في الاتّجاه المعاكس، أي نحو الاستخفاف بالصلاة، وهو الأمر الذي حذّرنا منه الإسلام ونهانا عنه.

لا تكن من هؤلاء:

ومن مظاهر الاستخفاف بالصلاة في بعض المجتمعات الإسلاميّة:

- أنّ بعض الأشخاص لا يعرفون كيفيّة الصلاة.
- وبعضهم لا يعرفون شروط صحّتها.
- وآخرون لا يعرفون شروط قبولها.
- وكثيرون لا يصلّونها في أوّل وقتها.
- وجماعة من الناس لا يهتمّون بصلاة أبنائهم.
- وثمّة عددٌ من الناس لا يعنيهم صوت المؤذّن وكأنّهم لا يسمعونه.

وبعض الناس يصلّون في أسرع وقت ممكن وأقصره، فينطبق عليهم ما ورد في الحديث عن تشبيه صلاة المستعجل بنقر الغراب.

وما أكثر من يرجّح كثيراً من أعماله ويُقدّمها على الصلاة.

وهذه كلّها مظاهر لداء الاستخفاف بالصلاة، ومجتمعاتنا مبتلاة بها، مع أنّ الإمام الصادق عليه السلام منذ قرون جمع أقاربه عند احتضاره وقال لهم: «إِنَّ شَفَاعَتَنَا لَا تَنَالُ مُسْتَخِفّاً بِالصَّلَاةِ»[1]

تمنّيات

آمل أن يأتي ذلك اليوم الذي يتحوّل فيه العمل في المساجد إلى عمل تخصّصي يُختار له العلماء والمثقفون من أساتذة الجامعات والمثقّفين وعلماء الدين من ذوي الأهلية والكفاءة العالية.

وفي الختام وبصفتي طالب علم قضى ردحًا من عمره في العمل الدعويّ والتبليغيّ والتعليم، لا حيلة لي إلا العمل في المجال الثقافي، قد عالجت موضوع الصلاة في أكثر من كتاب هي:

١. پرتوى از اسرار نماز (شعاع من أسرار الصلاة).

٢. تفسير نماز، (شرح الصلاة) وهو هذا الكتاب الذي أقدّمه إليك قارئي العزيز.

٣. پيوندهاى نماز (علاقات الصلاة).

أدعوك قارئي العزيز أن لا تكتفي بالاهتمام بصلاتك وصلاة أعضاء أسرتك، بل وسِّعْ دائرة اهتمامك إلى أعضاء المجتمع الآخرين وخَصِّص لهم جزءًا من نشاطك في مجال الدعوة إلى الصلاة وخاصّة الجيل الشابّ، وليكن ذلك بشكلٍ منظّم ومن

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٢٦.

خلال تشكيل روابط ولجان تحت عنوان «أنصار الصلاة» أو غيره من العناوين؛ لكي لا يصدق علينا قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾؛ وليصدق فينا دعاء إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾.

محسن قراءتي

المقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا محمّدٍ وآله الطاهرين.

أشكر الله تعالى وأحمده أن وفّقني لزيارة مرقد الإمام الرضا عليه السلام مطلع السنة الهجريّة الشمسية (١٣٧٤هـ. ش)، ومن لطفه عليّ وكرمه أن أعانني الله سبحانه على تأليف هذا الكتاب الذي بين أيديكم، ليكون تذكرةً تسهم في فهم جانب من أسرار الصلاة وما يتعلّق بها.

ومتابعةً للجهد الذي بُذِل في إقامة الصلاة في المدارس والجامعات والمراكز المختلفة، بعد انتصار الثورة الإسلامية المباركة في إيران، وبعد أن منّ عليّ المولى تعالى فوفّقني إلى تأليف عدد من الكتب في الصلاة هي: «شعاع من أسرار الصلاة»، و«مع الصلاة»، و «١١٤ مسألة في الصلاة». قرّرت أن أكتب كتابًا تحت عنوان (تفسير الصلاة) من تكبيرة الإحرام مرورًا بقراءة الحمد والسورة والركوع والسجود، وصولاً إلى التشهُّد والتسليم، وذلك من أجل أن نفهم هذه العلاقة المقدّسة مع الله تعالى والتي

تتحقّق عبر الصلاة، ولتكون عبادتنا مقرونةً بالتبصّر والمعرفة. وقبل الدخول في تفسير الصلاة وشرح أسرارها، لا بدّ من إلقاء نظرة ولو عابرة إلى العبادة والعبودية التي هي روح الصلاة وجوهر جميع التكاليف العبادية؛ لكي نُدرك مكانتها الرفيعة في حياتنا بشكل أفضل.

أسأل المولى سبحانه وتعالى للجميع الاستفادة من هذا العمل المتواضع.

ما هي العبادة:

يقول المولى تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]؛ فالعبادة هي الهدف الذي خلق الله الإنسانَ لأجله. والأعمال التي يؤدّيها الإنسان إذا كان فيها لله تعالى رضًا فهي عبادة، حتّى لو كانت عملًا يرجع نفعه إلى الفاعل نفسه، مثل: السعي في طلب الرزق، وتحصيل العلم، والزّواج، أو خدمة النّاس، أو غير ذلك من الأعمال التي يؤدّيها الإنسان لرفع حاجاته الشخصيّة أو الاجتماعيّة. من هنا، فإنّ أيّ عمل يُنجز بدافع مقدّس هو عملٌ عباديٌّ؛ وبتعبير القرآن الكريم: هو «صبغة الله»[2].

فطرية العبادة:

تنقسم الأعمال التي يؤدّيها الإنسان بحسب الدوافع إلى أفعال تدفعنا العادة إلى القيام بها وأفعالٍ فطريّةٍ، فالأعمال المبنيّة على العادة يمكن أن تكون قيّمة كالأعمال الحسنة والجيدة، ويمكن أن لا تكون قيّمة كعادة التدخين مثلاً، أمّا الأعمال التي نؤدّيها بدافع الفطرة التي أودعها الله فينا فهي أعمالٌ قيّمةٌ دائمًا.

(١) سورة الذاريات: الآية٥٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

وما تتميّز به الفطرة عن العادة، عدم تأثير الزمان والمكان والجنس والعرق فيها؛ فكلّ إنسانٍ، من جهة أنّه إنسان، يجد نفسه مدفوعًا نحوها كحبّ الأبناء، إذ هو صفة موجودةٌ في الكائن البشريّ لا يختلف في هذه الصفة أهل بلدٍ عن بلدٍ آخر ولا عرق من الأعراق عن غيره، ولا أهل زمانٍ عن غيرهم من السابقين أو الآتين[1]. أما الأمور التي تتعلّق بشكل اللباس ونوعه، أو بالطعام وطريقة تناوله، فإنّها من باب العادة؛ ولأجل هذا هي تختلف بحسب الزمان والمكان، وما هو مقبول في منطقة قد لا يكون مقبولًا في أخرى، وما هو مقبول في عصر قد لا يكون مقبولًا في عصر آخر.

والعبادة أيضًا من الأمور الفطريّة؛ لذلك نرى أنّ أقدم الآثار والمباني البشرية، وأجملها، وأمتنها على الإطلاق، هي آثار تتعلّق بالدِّين؛ كالمعابد (حتّى لو كانت معابد للأصنام أو النار). إذًا أصل العبادة أمرٌ فطريٌّ، وأمّا تطبيق العبادة فقد يختلف بين الناس، ومن ذلك الاختلاف في المعبود، فمن الناس من يعبد الله عزّ وجلّ ومنهم من يعبد الخشب أو الحجر أو غيرهما من الأصنام والأوثان.

(١) وقد يسأل سائل هنا: إذا كان حبّ الأبناء فطريًّا فلماذا كان بعض الناس في الجاهلية يدفن بناته وهنّ على قيد الحياة؟!

والجواب: هو أنّ الأمور الفطريّة متعدّدة وقد يوقع الخطأ في التطبيق وفهم المصاديق بعض الناس في حالة تناقض مع أمر فطريٍّ على حساب أمر فطريٍّ آخر. فحبّ الأبناء فطريٌّ والحفاظ على الشرف فطريٌّ أيضًا، ولأنّ بعض العرب كانوا يخطئون في فهم الشرف وكيفية الحفاظ عليه كانوا يضحّون بحبّهم لبناتهم حفاظًا على شرفهم وماء وجههم وهربًا من العار الذي كانوا يعتقدون أنّه سوف يلحق بهم بسبب البنت. ولسنا نقصد الدفاع عن فعل هؤلاء ولكنّنا نحاول تفسير القيام بفعل مخالفٍ للفطرة والطبيعة الإنسانيّة.

كما يختلف الناس في طريقة العبادة وأسلوبها إذ تبدأ بعض أساليب العبادة من الرقص وضرب الأرجل بالأرض (الدبكة مثلاً) إلى أن تصل إلى أرقى أشكالها كما في حالة الدعاء والمناجاة مع الله، وهذا بدوره له مستوياتٌ أرفعها شأنًا ما كان صادرًا عن أولياء الله وأنبيائه. وبناءً على أنّ العبادة أمرٌ فطريٌّ، نفهم أنّ هدف الأنبياء لم يكن نفخ روح العبادة في الإنسان؛ بل إصلاحها لجهة المعبود أو شكل العبادة.

ويؤكّد وجود روح العبادة في الإنسان عبر التاريخ ما تركته الأمم والشعوب الغابرة من آثار عمرانيّة تُسمّى معابد: كالكنائس والأديرة، ومعابد الهندوس، وكنس اليهود، ومساجد المسلمين، بل أخذت العبادة عند بعض الشعوب أو بعض الأشخاص أشكالًا مختلفة كتقديس الأعلام والأوطان والأبطال القوميّين، وحبّ الكمالات والقيم والمعنويّة، وغير ذلك ممّا كان الإنسان وما زال مستعدًّا للتضحية بروحه من أجله. كلّ هذه المظاهر تكشف عن وجود أمرٍ فطريٍّ في نفوس الناس يُعبّرون عنه بأشكالٍ صحيحة حينًا وخاطئة أحيانًا. وعلى حدّ تعبير الشاعر الإيرانيّ جلال الدِّين الرومي:

عندك من العواطف ما لا تستطيع التعبير عنه، كعواطف الطفل وميله إلى أمّه

لقد خلق الله عزّ وجلّ لكلّ ميلٍ وغريزة وضَعَها في الإنسان

وسيلةً لإشباعها، فمن خلق العطش والإحساس بالحاجة إلى الماء خلق هذا الأخير للإحساس بالارتواء. ومن أوجد الإحساس بالجوع خلق الطعام لرفع الجوع. واللّه الذي جعل في الإنسان بشكلٍ فطريٍّ الإحساس بالميل الجنسيّ خلق الجنس الآخر وشرّع الزواج من أجل تنظيم إشباع هذه الحاجة، والأمر نفسه يُقال عن حاسّة الشمّ وعليها يُقاس ما سواها.

والميل إلى الخلود وعشق الكمال وحبّ البقاء كلّها غرائز أودعها اللّه في الإنسان، وهي ميول لا يمكن إشباعها إلا عن طريق العبادة والعلاقة مع الموجود الخالد والكامل المطلق الذي لا نقص فيه وهو اللّه تعالى. والصلاة تعبير من تعبيرات العلاقة بهذا الموجود المقدّس ولجوء من الإنسان إلى التواصل مع منبع الوجود والخير كلّه.

أصل العبادة وجذورها:

من ذا الذي يعرف اللّه سبحانه بأوصافه وكمالاته اللامتناهية ولا يخضع لربوبيّته، ولا يسلّم لوجهه؟ يُبيّن لنا اللّه (عزّ وجلّ) في القرآن، من طريق القصص، والتاريخ، آياتِ قدرته وعظمته، مثلاً: وهب مريم ابنة عمران ولدًا من غير زوج، وفلق نهر النيل لموسى عليه السلام، فنجّاه وقومه وأغرق فرعون، ونصر أنبياءه المسالمين المجرّدين من السلاح في مقابل طواغيت عصورهم وفراعنة

أزمنتهم، ومرّغ أنوف الجبابرة على الرغم ممّا كان لهم من سطوة وعدّة وعتاد. والله هو العزيز المقتدر الذي خلق الإنسان من تراب لا حياة فيه، ونقلنا من العدم إلى الوجود، وهو الذي بيده موتكم وحياتكم، وعزّكم وذلّكم. فمن هو العاقل الذي يُدرك ضعفه وعجزه وجهله وحدود قدراته، ويعي الأخطار والحوادث المتوقّعة وغير المتوقّعة التي قد تعصف به، ثم لا يشعر بالحاجة إلى قدرة تُنجيه، ولا يُسلّم ولا يخضع لهذه القدرة المطلقة التي لا حدود لها؟!!

ويُذكّرنا القرآن الكريم في أجمل صورة وبيان بضعف الإنسان، فيقول لنا في آيات عدّة منه، ويُذكّرنا ويُؤدّبنا بهذا الأدب، وهو أدب الالتفات إلى العجز والحاجة إلى الله:

١. ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾(١)

٢. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾(٢)

٣. ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۢ﴾(٣)

٤. ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾(٤)

(١) سورة النحل: الآية ٧٨.
(٢) سورة الروم: الآية ٥٤.
(٣) سورة الملك: الآية ٣٠.
(٤) سورة الواقعة: الآية ٧٠.

٥. ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[١]

٦. ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[٢]

٧. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٣].

ويضاف إلى هذه الآيات غيرها من الآيات والنماذج التي تبلغ العشرات. وكلّها تهدف إلى توعية الإنسان وإيقاظه من غفلته، وتحطيم غروره الكاذب، وإعادته إلى فطرته، ألا وهي عبادة الخالق الواحد والتذلُّل إليه.

عمق العبادة:

قد تبدو العبادة بحسب الظاهر شكلًا من أشكال الخضوع للمعبود فحسب؛ غير أنّها في الواقع والجوهر أعمق من هذا الظاهر بدرجات. فالعبادة تنشأ وتنبعث من الروح، ومن المعرفة، ومن التوجّه إلى المعبود وتقديسه والثناء عليه، ومن التضرّع والالتجاء

(١) سورة الواقعة: الآيات ٦٣ – ٦٥.
(٢) سورة النبأ: الآيات ٦ – ٩.
(٣) سورة القصص: الآيتان ٧١ – ٧٢.

والاستعانة، وبعبارة عامّة شاملةٍ هي حالة تكشف عن الحبّ والعشق والتعلّق بكمالات المعبود.

وقد تبدو العبادة الصحيحة عملًا بسيطًا في الظاهر؛ ولكن لا بدّ من الانتباه إلى أنّ وراء هذا الظاهر البسيط معنًى أعمق فإذا لم تتوفّر مجموعة من المعاني والشروط في العبادة تكون ناقصةً غير منجزة بالشكل المطلوب. فالعبادة في واقعها تعني خلع القلب من المادّيات، وعروج الروح وتحليقها عاليًا، إلى حيث لا يبلغ ولا يصل النظر والسمع. وهي الممارسة التي تسمح للإنسان بأن يعبّر عن أعلى درجات الحبّ المكنون في نفسه؛ ففي العبادة يقف الإنسان بين يدي الله تعالى، ويُطلق لسانه في التعبير عن الحبّ والتقديس والحمد والشكر والتسليم والخضوع وغير ذلك من المعاني المرتبطة بالحبّ ولا يكون الحبّ الكامل إلا للموجود الكامل، ولا يكون الحبّ الذي لا حدود له إلا للموجود الذي لا يحدّه حدّ.

عدم الاكتراث بالعبادة:

رُوِي عن أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام في بعض خطبه: **«فما خُلِقتُ ليشغلني أكل الطيّبات كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها وتلهو عما يُراد بها...»** ثم يكمل عليه السلام فيقول: **«قُرّت إذًا عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية»**[1].

(١) الإمام عليّ عليه السلام، نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، ج٣، ص ٧٥.

إذًا يصير الإنسان أشبه بالحيوان عندما يتحوّل الطعام والمأكل والملبس إلى أكبر همّه. وقد تطوّرت الحضارة المعاصرة، على المستوى التقنيّ والفنّيّ، واختراع الوسائل والآلات المتطوّرة، وسهّل ذلك الحياة، وجعلها أكثر راحة ورفاهًا؛ ولكن هل يؤمّن هذا التطوّر كلّه الكمال للإنسان؟! وهل ينحصر تكامل الإنسان في تكامل هذه الأبعاد من حياته؟! ولو كان الأمر بإشباع الحاجات المادّية والجسديّة للإنسان لكان الحيوان أكثر تقدّمًا وتطوّرًا لأنّه يحصل على جميع حاجاته وهو مربوط إلى معلفه، يُقدِّم له الإنسان ما يريد ويحصل على ما يشتهي دون جهدٍ أو تعبٍ... وفي الملبس لا يحتاج إلى خياطة، ولا إلى غسل أو تنظيف أو كيٍّ أو تبديل. أمّا في ما يتعلّق بالشهوة، فهو يُرضي نفسه من غير مشاكل ولا عناء... وعن السكن يمكن أن يُقال الأمر عينه فإنّ بعض الطيور تبني أعشاشها بطريقة تُدهش الإنسان نفسه.

لكن السؤال الهامّ: هل حقّق التطوّر التكنولوجيّ الرشد والكمال للإنسانية؟ هل انخفضت نسبة الفساد الفردي والاجتماعي؟ هل اقترنت هذه الراحة الجسديّة بالاطمئنان النفسيّ؟ الجواب عن هذه الأسئلة كلّها بالنفي، فإنّ الإنسان إذا لم يُسلّم قياده للقادة المعصومين لن يصل إلى ما يصبو إليه من غايات حقيقيّة. وما لم يتعلّق قلب الإنسان بمصدر الخير والاطمئنان أي الله تعالى، لن يكون له ما يريد.

ثبات مدار العبادة:

للكواكب والنجوم والأرض مدار ثابت في وقت واحد، فهي تتحرّك في ثابت على الرغم من تنوّع حركتها بين الحركة الموضعيّة والحركة الانتقاليّة. والعبادة بجميع صورها وأشكالها المختلفة تدور على مدار ثابت، ألا وهو رضا الله تعالى، حتى لو تغيّرت الظروف والأوضاع الزمانية والمكانية، والفردية والاجتماعية لنوع الحركة في هذا المدار. مثلاً: يُصلّي المسافر ركعتين بدلًا من أربع، والمرض قد يُغيّر شكل الصلاة، لكنّ الشكلين المذكورين أو غيرهما من الأشكال التي تأخذها هذه العبادة تُسمّى صلاة، وكلّها تدور في مدار ذكر الله سبحانه ورضاه والقيام بأوامره: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1].

روحانيّة العبادة:

العبادة غذاء للرّوح، فكما أنّ أفضل الغذاء هو ما تنجذب إليه النفس ويحتاجه الجسد، فإنّ أفضل العبادة هي ما تنجذب إليه الروح؛ وهي العبادة المترافقة مع النشاط وحضور القلب، وكما أنّ المبالغة في الأكل أمر غير مرغوب، والمهمّ هو الغذاء النافع والمفيد، كذلك العبادة. لذلك، يقول رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله الأنصاري: «**إنّ هذا الدِّين لمتين فأوغل فيه برفق،**

(١) سورة طه: الآية ١٤.

ولا تُبغِّض إلى نفسك عبادة الله»[1]. وفي حديث آخر يقول ﷺ: **«أفضل الناس من عشق العبادة وعانقها»**[2].

الاعتدال في العبادة:

تبقى روحيّة العبادة في الإنسان حيّة ما دام يؤدّيها الإنسان باعتدال؛ لذلك نقرأ في الكتب أحاديث وروايات تحت عنوان: **«باب الاقتصاد في العبادة»**. الجسم السليم هو الجسم الذي تتناسب أعضاؤه، فإذا كان أحد الأعضاء أكبر من غيره بحدود غير طبيعيّة فهذا يعني أنّ صاحبه ناقص الخلقة، والكلام عينه يُقال عن الأمور المعنوية أيضاً، فالإنسان يجب أن ينمو على المستوى الروحيّ بشكل متناسق ومتعادل. يُنقل أنّ جماعة من الصحابة اجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون الجمحي، واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم، ولا الودك[3]، ولا يقربوا النساء والطيب، ويلبسوا المسوح، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا في الأرض، وهمّ بعضهم أن يجبّ مذاكيره (يقطع أعضاءه التناسليّة). فبلغ ذلك رسول الله ﷺ. فقال معلّمًا إيّاهم: **«إنّي لم أؤمر بذلك»**. ثم قال: **«إنّ لأنفسكم عليكم حقّاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإنّي أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآكل**

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٥٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٧١، ص ٢١٨.
(٣) الودك: الدَّسم.

اللحم والدسم، وآتي النساء، ومن يرغب عن سنّتي، فليس منّي».

ثم جمع الناس وخطب فيهم، وقال: **«ما بال أقوام حرّموا النساء، والطعام، والطيب، والنوم، وشهوات الدنيا؟ أمّا إنّي لست آمركم أن تكونوا قسّيسين ورهبانًا، فإنّه ليس في ديني ترك اللحم، ولا النساء، ولا اتخاذ الصوامع، وإنّ سياحة أمّتي الصوم، ورهبانيّتهم الجهاد، اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، وحجّوا، واعتمروا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا يستقم لكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بالتشديد: شدّدوا على أنفسهم، فشدّد الله عليهم، فأولئك بقاياهم، في الديارات والصوامع»**[1].

ويُنقل عن الإمام الصادق عليه السلام قصّة ذلك الرجل المسيحيّ الذي أسلم، فجاءه جاره المسلم وأيقظه وقت السحر، وصَحِبه إلى المسجد، وقال له: صلِّ صلاة الليل قبل أن يطلع الفجر، فلمّا طلع الفجر قال له: صلّ صلاة الصبح، وبعد طلوع الشمس ادع بهذا الدعاء، حتى حان وقت الظهر، قال له: حان وقت صلاة الظهر، صلِّ الظهر واقرأ بعد ذلك القرآن، وهكذا بقي يُشغله بالصلاة والدعاء وقراءة القرآن حتى رجع المسيحي إلى بيته متعبًا مرهقًا، بعد ذلك ارتدّ عن الإسلام، ولم يعد يذهب إلى المسجد... إنّ

(١) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٤٠٤ – ٤٠٥.

الإفراط في العبادة يجعل الناس تفرّ منها، فتُصبح العبادة ثقيلة على النفس والبدن.

يقول عبد الله بن عمرو - وكان من أنصار أمير المؤمنين عليه السلام - (ينقل الشهيد مرتضى مطهّري أنّه كان لعمرو بن العاص ولدان؛ أحدهما من محبّي عليّ عليه السلام وأنصاره، والآخر من أنصار معاوية)، يقول: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«لقد أُخبرت أنّك تقوم الليل وتصوم النهار»** قلت: يا رسول الله نعم، قال: **«فصم، وأفطر، وصلّ، ونم، فإنّ لجسدك عليك حقًّا، وإنّ لزوجك عليك حقًّا، وإنّ بحسبك أن تصوم من كلّ شهر ثلاثة أيام...»**[1].

وقد ورد في بعض الأخبار: **«إنّ للقلوب إقبالًا وإدبارًا»**[2]. فعندما تُقبِل الروح ويكون القلب مستعدًّا يجب الاستفادة والإقبال على العبادة، أمّا عندما لا تتوفّر مثل هذه الظروف ولا يجد الإنسان نفسه مقبلةً على العبادة، فلا يجب إجبارها طبعاً هذا في غير الفريضة - أو الضغط عليها حتّى لا يحصل عكس ما يريد الإنسان فتتحوّل العبادة إلى أمرٍ مبغوضٍ. ولقد جاء في الوصايا والأحاديث الإسلامية أنّ الوقت أربع ساعات... منها ساعة للراحة واللذّة في غير محرم؛ وذلك كي يستعيد الإنسان نشاطه ويساعده ذلك على

(١) وردت هذه الرواية في عدد من الكتب مثل: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٥٤، ص٧٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، جلال الدّين السيوطي، الدر المنثور، ج٢، ص٣١٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٣٥٧.

صرف بقيّة وقته في الأمور المفيدة في الساعات الثلاث الباقية.[1]

وبالرجوع إلى القرآن الكريم نجد أنّ الله عزّ وجلّ استخدم كلمة «اعتدوا» للتعبير عن فعل اليهود الذين كانوا ينهضون لصيد السمك يوم استراحتهم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[2]. إذًا، يجب على الإنسان أن لا يكرّه العبادة إلى نفسه وإلى عباد الله، ولا يؤدّي عباداته إلا وهو في حالة نشاط واستعداد كاملين.

الإدارة في العبادة:

الإدارة ليست فقط في المسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لا بل إنّ العبادة أيضاً بحاجة إلى إدارة، وبرنامج، وتنظيم، ففي أصول الإدارة توضع البرامج وخطط العمل ويتمّ اختيار القوّة العاملة، كذلك، لا بدّ من الانضباط والنظم والرقابة، مضافًا إلى ذلك كلّه التحفيز والتشجيع والمحاسبة. والعبادة تحتاج أيضًا إلى حسن إدارةٍ، لتتحقّق الأهداف المبتغاة منها، وتسهم في وصول الإنسان العابد إلى الرشد والكمال. إذا نظرنا إلى عبادة الصلاة، فإنّنا نجد خطّة معيّنة، وتنظيمًا واضحًا، فهي تبدأ بالتكبير، وتنتهي بالتسليم، وعدد الركعات والسجود فيها محدّد، وأوقات إقامتها معيّنة، وجهتها محدّدة: نحو القبلة؛ لكن الطرح أو الخطّة وحدها

(١) ابن بابويه، فقه الرضا، ص٣٣٧؛ وبحار الأنوار، ج٧٥، ص٣٢١.
(٢) سورة البقرة: الآية ٦٥.

لا تكفي، فإنّ إقامة الصلاة بحاجة إلى اختيار إمام للجماعة جامع للشروط، وعلى المصلّين مراعاة الآداب والأخلاق والنظافة عند إقامة هذه الشعيرة؛ لذلك، يجب ترغيب الناس والمؤمنين بالصلاة، والمشاركة في المساجد، بالآداب والأخلاق والنظافة والنشاط، كذلك يجب مراعاة التنظيم في صفوف الجماعة خلف الإمام، ثم متابعته في الجماعة. بناءً عليه، فإنّ عبادة الصلاة تتطلّب إدارة كاملة لإقامتها على أفضل نحو.

العبادة دواء اللّيل والنّهار:

تفتح العبادة أبواب العلاقة مع اللّه في كلّ زمانٍ ومكانٍ، وفي كلّ الظروف، من غير ميعاد سابق ولا حاجة إلى توسيط أحدٍ، وبأيّ لغة يُتقنها الإنسان، وعلى الرغم من تحديد الشريعة أوقاتًا لبعض العبادات كالأدعية أو الصلوات، من قبيل: أوقات السحر، وغروب يوم الجمعة، أو بعد خطبة صلاة الجمعة، وعند نزول المطر، وفي ليالي القدر، على الرغم من هذا التحديد فإنّ العبادة لا تختصّ بهذه الأوقات فقط، بل هي في كلّ آنٍ وحالٍ. والعبادة في كلّ حال دواءٌ لداء الغفلة والنسيان[1]؛ هي دواء يمنح السكينة والهدوء والاطمئنان، ويُزيل القلق والاضطراب، ويثبّت القلوب وينفخ فيها روح الطمأنينة، يقول تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2].

(١) ﴿□ □ □﴾ سورة طه: الآية ١٤.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢٨.

العبادة أصل طمأنينة القلوب:

في العالم كثير من الذين هم من: الطواغيت، وأصحاب رؤوس الأموال، والأغنياء الكبار، وأهل الفكر والعلم، وأرباب الصناعة والتكنولوجيا، لكن هل يكفي الاتّصاف بهذه الصفات أو أن يكون المرء من هؤلاء حتّى يكون مطمئنّ القلب مستقرّ النفس؟ ونحن نُقرّ بأنّ المجتمعات الغربيّة بلغت الغاية في التطوّر التقنيّ؛ ولكن هل هي تعيش حالة السكون والسكينة على المستوى الروحيّ؟ هل جلبت الصناعة والقدرات المالية والعسكرية والتقدُّم الصلحَ والسلامَ والطمأنينةَ والسكينةَ والعيش الهادئ للبشريّة؟ يبدو أن لا شيء ممّا تقدّم يولّد الطمأنينة في أعلى درجاتها سوى العبادة وطاعة المولى سبحانه فهما اللتان تمنحان أولياء الله حالة من الطمأنينة والسكون الروحي والنفسي، بحيث لا يشعرون مع العبادة والأنس بالعلاقة مع الله بأيّ قلق أو اضطّراب، في جميع الظروف التي يعيشونها. من هذا الباب أروي حادثتين من ذكريات الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ:

عندما فرّ الشاه من إيران كان شاهبور بختيار العميل على رأس الحكومة والسلطة في إيران، حينها قرّر الإمام الخميني الرجوعَ إلى الوطن، بعد ١٥ سنة من الهجرة القسريّة والنفي. في الطائرة، وأثناء العودة سأله المراسل الصحفي، ماذا تشعر الآن؟ قال الإمام: لا

أشعر بشيء خاصٍّ! وفي حين كان الملايين من عشّاق الإمام قلقين على حياته، كان الإمام في الطائرة منشغلاً بالعبادة والذكر وصلاة الليل بكلّ طمأنينة وسكون؛ كلّ هذا الاطمئنان سببه ذكر الله تعالى.

القصة الثانية ينقلها السيد أحمد ابن الإمام، وقد سمعتها منه شخصيًّا. يقول: **«عندما فرّ الشاه من إيران، اجتمعت الصحافة والمراسلون بالعشرات أمام منزل الإمام الخميني في باريس، ومعهم العدسات والكاميرات يريدون نقل حديث الإمام إلى العالم كلّه، وقف الإمام على كرسيّ وقال بضعة كلمات ثم نظر إليّ (إلى أحمد الخميني). وسألني هل حان وقت الظهر، قلت له نعم لقد حان، عندها قطع الإمام كلامه مباشرة، ونزل من على الكرسي، وتوجّه إلى الصلاة، حار الجميع وضجّوا، وسألوا ما الخبر؟ قلت لهم: إنّ الإمام ملتزمٌ بإقامة الصلاة في أوّل أوقاتها...**

هذا هو الإمام الخميني، ما فعله في باريس كان درسًا تعلّمه من إمامه الإمام الرضا عليه السلام، حين أتاه إمام الصابئة[1] ورئيسهم، وكان رجلاً مغرورًا ومتعصّبًا، لم يُسلِم، ولم يقتنع من كلام الإمام ومحاوراته، حتى اختلط عليه الأمر في إحدى جلساته ومحاوراته مع الإمام، وانهدمت أفكاره فقال: **«الآن لان قلبي»**. في تلك اللحظة ارتفع صوت الأذان، فنهض الإمام للصلاة، وترك محاورة الرجل، فأصرّ عليه من كان حاضرًا من محبّيه وأصحابه ليكمل حديثه

(١) فرقة من غير المسلمين لهم دينٌ خاصٌّ بهم وقد اختلف الفقهاء في أنّهم من أهل الكتاب أو ليسوا منهم، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم.

ومحاورته لعدّة لحظات، علّ إمام الصابئة يؤمن؛ لكن جواب الإمام كان أنّ الصلاة في أوّل وقتها أهمّ، فإن كان أهلًا لقبول الحقّ وقد لانَ قلبه فلينتظر حتّى نقيم الصلاة ونعود إلى المناظرة والحوار. فلمّا رأى الرجل شدّة الإمام الرضا وصلابته وتعبّده وعشقه للحقّ، تعلّق بالإمام أكثر، فأسلم وحسُن إسلامه، وهذا الرجل كان اسمه عمران الصابئي.

وكان عمران الصابئي هذا من كبار فلاسفة عصر الإمام عليه السلام كما كان الزعيم الروحيّ لطائفة الصابئة، وقد انتدبه المأمون لامتحان الإمام، فاختار له أعمق المسائل الفلسفية وأكثرها تعقيدًا وغموضًا... وأجاب عنها الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ثامن حجج الله على عباده وأمنائه في أرضه... ولمّا رأى عمران الصابئي مبلغ الإمام عليه السلام من العلم، وأجوبته الحاسمة عن أعمق المسائل الفلسفية التي لا يهتدي إلى حلّها إلا أوصياء الأنبياء الذين منحهم الله العلم وفصل الخطاب، أعلن عمران إسلامه وطفق يقول: **«أشهد أنّ الله تعالى على ما وصفت، ووحّدت، وأشهد أنّ محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم عبده المبعوث بالهدى، ودين الحقّ...»** ثم خرّ ساجدًا لله تعالى وأسلم، وانبهر العلماء والمتكلّمون من علوم الإمام، ومواهبه وعبقريّاته، وراحوا يُحدِّثون الناس عن فضل الإمام وسعة علومه...[1]

(١) انظر: الشيخ باقر شريف القرشيّ، حياة الإمام الرضا عليه السلام. ج١، ص١٠٢-١٠٥.

العبادة وتلقّي المدد واللطف الإلهيّ:

العبادة وسيلة من وسائل تلقّي الإمدادات والألطاف الإلهية. يقول المولى تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[1].

وقد ورد أنّ موسى عليه السلام بقي في جبل طور سيناء يتعبّد الله تعالى ويذكره ويناجيه مدّة أربعين يوماً وليلة، لتلقّي كتاب الوحي السماوي (التوراة). ونقرأ في سيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان يتعبّد في غار حراء مدّة طويلة، ثم بعد ذلك تلقّى الوحي الإلهي، وبُعث رسولًا للعالمين. ونقرأ في الروايات والأخبار الإسلاميّة: «**من أخلص العبادة لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»[2].

إذًا، العبادة الخالصة هي جامعة، يتخرّج العبد منها بعد أربعين يومًا حكيمًا متألّهًا، يتلقّى الحكمة من النبع الإلهي، ويُعلّمها للناس.

التأثير المتبادل بين الإيمان والعبادة:

كما أنّ الإيمان يحثّ الناس على العبادة، فإنّ العبادة أيضًا تؤثّر في تعميق الإيمان، تماماً كمثل الجذور التي تمنح أوراق الشجر الماء والغذاء، ثم تأتي الأوراق في المقابل لتنقل النور والحرارة إلى الجذور. من هنا، فإنّه كلّما تمّت العبادة بصورة أفضل وأكبر، فإنّ أنس الإنسان بمعبوده يُصبح أكثر.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩٩.

(٢) بحار الأنوار، ص ٣٢٦، ج٣٥.

فلسفة العبادة في القرآن:

يكشف القرآن الكريم عن أنّ روح الصلاة التي هي أهمّ العبادات، يكمن في أنّها ذكرٌ لله تعالى: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.[١] ويعدّ ذكر الله سبحانه أصل طمأنينة القلوب: ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[٢] ونتيجة طمأنينة القلوب العروج إلى الملكوت: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ...﴾[٣]. وفي مواضع أخرى يستدلّ القرآن الكريم على وجوب العبادة ولزومها بأنّها شكل من أشكال الشكر لله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾.[٤] ويقول في مورد آخر: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ﴾.[٥] ففي هذه الآيات وغيرها نجد أنّ الله يدعو الإنسان إلى العبادة بعد ذكر نعمة أنعمها عليه. وتشير بعض الآيات إلى دور الصلاة التربوي: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[٦].

وعلى أيّ حال يجب على المصلّي مراعاة عدد من الأحكام والأوامر والنواهي الشرعية والدّينية، حتّى تسمو الصلاة التي

(١) سورة طه: الآية ١٤.
(٢) سورة الرعد: الآية ٢٨.
(٣) سورة القمر: الآية ٢٨.
(٤) سورة النساء: الآية ١
(٥) سورة قريش : الآيتان ٣-٤.
(٦) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

يؤدّيها إلى درجة القبول والصحّة. على أنّ رعاية هذه الأحكام تبني الأسس القوية لتجنّب المعاصي والقبائح، والابتعاد عن المنكر؛ لأنّ من يرتدي اللباس الأبيض النظيف، فمن الطبيعي أن يتجنّب الجلوس في الأماكن الملوّثة والوسخة، ويبتعد عن النجاسات. ثم يعقّب القرآن الكريم بالتوصية بإقامة الصلاة بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1] والحسنات كثيرةٌ على رأسها الصلاة؛ وبناءً على أنّ الصلاة حسنةٌ تُذهب السيّئات يمكن أن نعدّها توبة عملية من الذنوب والمعاصي التي ارتكبها الإنسان من قبل. وفي هذه الآية الشريفة وعدٌ إلهيٌّ يُثير الأمل في نفوس العاصين بمحو ما اقترفوا من المعاصي والذنوب، إن اشتغل الإنسان في حاضره ومستقبله بالحسنات وهي كما تقدّم كلّ فعلٍ يؤدّيه الإنسان لوجه الله تعالى.

الصلاة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام:

ورد في نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام أحاديث كثيرة، يتحدّث فيها الإمام عن الصلاة وذِكر الله سبحانه. ولكثرة هذه الأحاديث تصدّى بعض العلماء لتأليف كتاب في هذا المجال بعنوان: «**الصلاة في نهج البلاغة**». ونحن هنا نتطرّق إلى بعض الجمل التي وردت عن الإمام عليّ عليه السلام في فلسفة الذكر:

(١) سورة هود: الآية ١١٤.

والصلاة من أهمّ مصاديقه العملية، يقول إمام الموحّدين: «**إنّ الله جعل الذكر جلاء للقلوب تسمع به بعد الوقرة، وتُبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة**»[1]. نعم إنّ الصلاة تمنح الإنسان البصيرة والرؤية الواضحة، كما أنّ التقوى تمنح البصيرة والفرقان. ثم يذكر الإمام عليه السلام بركات الصلاة فيقول: «**قد حفّت بهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدّت لهم مقاعد الكرامات**». وفي خطبة أخرى يقول عليه السلام: «**وإنّها لتحُتُّ الذنوب حتّ الورق، وتُطلقها إطلاق الربق**»[2].

نعم، إنّ الصلاة لتسقط الذنوب عن كاهل الإنسان كما تسقط أوراق الشجر، وتعتق رقبة العبد من حبل الذنوب. ولقد شبّهها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعين الماء تكون على باب بيت الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرّات، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن. وقد عرف حقّها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع، ولا قرّة عين من ولد، ولا مال[3].

وفي الخطبة ١٩٦ من نهج البلاغة نقرأ قول الامام عليّ عليه السلام: «**ولكنّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، يتعبّدهم بألوان المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجًا للتكبّر من قلوبهم،**

(١) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٣٢٥.
(٢) بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٣٦٩.
(٣) انظر: السيد البروجردي، جامع أحاديث الشيعة، ج ٤، ص ٥٢.

وإسكانًا للتذلّل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبوابًا فتحاً إلى فضله، وأسبابًا ذلّلًا لعفوه...» إلى أن يقول: **«وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات تسكيناً لأطرافهم، وتخشيعاً لأبصارهم، وتذليلاً لنفوسهم، وتخفيضاً لقلوبهم، وإذهاباً للخيلاء عنهم، لما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً، وإلصاق كرائم الجوارح تصاغراً»**[1].

إنّ الصلاة تمنح وجود الإنسان كلّه الطمأنينة والسكينة، وتجعل العيون والأبصار خاشعة خاضعة، وتلجم النفوس المتمرّدة، وتليّن القلوب القاسية، وتمحو التكبُّر والغرور: **«إنْ أوحشتهم الوحشة آنسهم ذكرك»**[2]. إنّ ذكر الله هو المؤنس المطمئن عند الاضطّراب والوحشة؛ لكن من الواضح، أنّ كل البشر لن يتمكّنوا من الوصول إلى هذه الدرجات، فيأنسوا بالصلاة، ويربحوا هذه التجارة العظيمة؛ نعم، هناك ثلّة فقط عشقوا الصلاة، وذابوا في محرابها، وذكروا الله حقّ ذكره، بحيث لا يستبدلون هذا العشق، وهذا الذكر، بالدنيا وما فيها.

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ١١٤- ١١٥.
(٢) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٣٢٩.

آثار العبودية وبركاتها:

١- **الإحساس بالعزّة والفخر**: ورد في المناجاة عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**إلهي كفى بي عزًّا أن أكون لك عبدًا**»[١]، فأيّ عزّ، وأيّ افتخارٍ أكبر وأسمى من أن يتحدّث الإنسان إلى خالقه ومعبوده، ويسمع المولى تعالى كلام عبده ويتقبّله. في هذه الدنيا الوضيعة يشعر الإنسان بالعزّ والفخر إذا تحدّث إلى شخص عظيم، أو عالم كبير، ويفاخر إذا تتلمذ على أحد الأساتذة أو العلماء الأفاضل، فكيف بمن يتحدّث إلى ربّ العباد ويُخاطبه !.

٢- **الشعور بالقوّة**: إذا أمسك الطفل يد والدٍ حنون وقويّ، فإنّه يشعر بالقوّة والاطمئنان، أما إذا تُرك وحيدًا، فإنّ الخوف يسيطر عليه، ويخشى من أن يؤذيه الآخرون؛ هكذا حال الإنسان إذا اتّصل بالخالق سبحانه، فإنّه يشعر بالقدرة والقوّة في مواجهة الطواغيت والمستكبرين والفراعنة.

٣- **الإحساس بالعزّة**: العزّة بمعنى عدم نفوذ الضعف واليأس، فالعزّة في مدرسة الأنبياء هي من عند الله تعالى، كما أنّ القدرة من لدنه سبحانه؛ لذلك، يُصرّح القرآن منتقدًا أولئك الذين يبغون العزّة من عند غير الله ويطلبونها من

(١) بحار الأنوار، ج٧٧، ص٤٠٢.

سواه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[1] من الطبيعي أن يمنح الارتباط باللّه- العزيز والمقتدر المطلق- الإنسان العزّة والقدرة، كما شاهدنا أنّ كلمات مثل «الله أكبر» تجعل من الطواغيت أشخاصًا حقيرين عند المستضعفين، وتجعل المستضعفين أعزّاء في مقابلهم. من جهة ثانية، فإنّ القرآن الكريم يأمرنا أن نستمدّ القوّة والقدرة عند المحن والصعاب من الصلاة، إذ يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ...﴾[2] وهذا ديدن أولياء اللّه تعالى عبر التاريخ، حيث كانوا يستمدّون القوّة في المواقع الحسّاسة والحرجة من إقامة الصلاة. في كربلاء، في عصر اليوم التاسع من محرّم، حمل جيش يزيد على مخيم الإمام الحسين عليه السلام، فقال الإمام لأخيه أبي الفضل العباس: «**فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى الغدوة، وتدفعهم عند العشية، لعلّنا نُصلّي لربّنا الليلة، وندعوه ونستغفر له، فهو يعلم أنّي قد كنت أُحبّ الصلاة له، وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار**»[3].

(١) سورة النساء: الآية ١٣٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٥.

(٣) عاشوراء في الحديث والأدب، ص١٣٣.

إذًا دفع حبّ الصلاة والخلوة مع الله أبا الأحرار إلى طلب المهلة ولو لليلة، لتكون آخر ليلة من حياته ليلة عبادة وتهجّد.

عبادُ الله الصالحون لا يُحبُّون الصلاة الواجبة وحدها، بل لا يكتفون بها ويحرصون على أداء الصلاة المستحبّة أيضاً؛ لأنّ الصلاة المستحبّة والنوافل دليل على عشق المؤمن للصلاة، ولعلّ الإنسان يقيم الصلاة الواجبة خوفًا من قهر الله تعالى وغضبه، وامتثالاً لأوامره، لكنّ الصلاة المستحبّة ليس فيها شبهة الخوف ولا شائبته. الحبّ هو الدافع الوحيد إليها؛ ألا يحبّ الإنسان العاشق أن يتكلّم مع معشوقه، وهل يكتفي هذا العاشق بإلقاء التحيّة المتعارفة الواجبة أم يتجاوزها ويستغلّ كلّ فرصة للأنس بمحبوبه؟ ألا يشعر من استبدّ به الحبّ بأنّ قلبه صار محلّ إقامة دائم لمن يُحبّ، فإذا انشغل بشيء آخر عاد به الشوق إلى مركز الحبّ والعشق؟ فكيف يصحّ للإنسان أن يدّعي حبّ الله تعالى وهو يكتفي بالحدّ الأدنى من الخلوة والحدّ الأدنى من الحديث معه؟

إنّ قلّة الهمّة على أداء النوافل والاكتفاء بالصلاة الواجبة أو استثقالها أحيانًا، أعراض لمرضٍ يُمكن أن نسمّيه عدم صدق الحبّ، وهذا أيضًا له أسبابه، فالانشغال بالمعاصي يسلب الإنسان نعمة تذوّق لذّة المناجاة مع الله، وقد ورد في الأخبار أنّ بعض المعاصي تحرم الإنسان من صلاة الليل ونوافل الأسحار. ومن لا يُقبِل على الله لا يحقّ له أن يتوقّع إقبال الله عليه، ومن ينتظر

المصلح عليه أن يكون من أهل الصلاح.

يُضاف إلى ما تقدّم، أنّ صلاة النوافل تجبر النقص الذي ربّما يُصيب الصلاة الواجبة، كما ورد على لسان أحد الأئمّة المعصومين إذ اشتكى إليه أحد أصحابه عدم حضور قلبه أثناء الصلاة، فدعاه الإمام إلى أداء بعض النوافل علّها تجبر نقص صلاته التي يُصلّيها دون حضور قلبٍ[1]. لذلك، نرى أنّ أولياء الله لم يهتمّوا فقط بالصلاة الواجبة، بل توجّهوا باهتمام أيضًا إلى النوافل والصلاة المستحبّة، وجهدوا في تجنّب كلّ ما يُشكّل مانعًا في سيرهم المعنويّ وعروجهم الروحيّ؛ ككثرة الطعام، وكثرة الكلام، وكثرة النوم، واللقمة الحرام، واللهو واللعب، والتلهّي بالدنيا، وكلّ ما يثبط الهمّة ويُضعف العزيمة في العبادة، ويجعل الصلاة ثقيلة على الإنسان؛ لذلك كلّه يصف الله عزّ وجلّ في القرآن الصلاة بقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[2].

٤- **الصلاة والتربية:** لا شكّ في أنّ الصلاة هي ارتباط روحيّ ومعنويّ، والهدف منها هو ذكر الله تعالى، غير أنّ الإسلام أراد أن يُصقل هذه الروح في قالب سلسلة من البرامج التربوية، لذلك جعل للصلاة شروطًا كثيرةً، وهي تنقسم إلى شروط صحة، وشروط قبول، وشروط كمال. فمن شروط

(١) انظر: وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٧١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٥.

صحة الصلاة مثلاً، طهارة البدن واللباس، والتوجّه نحو القبلة، والقراءة الصحيحة، وإباحة مكان المصلّي ولباسه، وهذه الأمور تتعلّق ببدن الإنسان وليس بروحه في حالة الصلاة؛ لكنّ الإسلام جعل عبادة الصلاة في هذا اللباس ليعلّم المسلمين دروس النظافة والطهارة والاستقلال واحترام حقوق الآخرين.

ومن شروط قبول الصلاة؛ التوجّه وحضور القلب، وقبول قيادة الإمام المعصوم وتولّيه، وأداء الواجبات المالية كالخمس والزكاة. أمّا أداء الصلاة في أوّل وقتها، والحضور في المسجد، والمشاركة في الجماعة، واللباس النظيف والتعطُّر والتسوّك، ورعاية النظم في صفوف الجماعة، وأمثال ذلك، فهي تعدّ من شروط الكمال، فإذا تأمّلنا هذه الأنواع الثلاثة من الشروط ودقّقنا النظر فيها، نجد أنّ كلّ قسمٍ منها له دوره الفاعل في تربية الإنسان ورقيّه الروحيّ.

عندما ننظر إلى القرآن نجده يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1]، فالإسلام يريد أن يُفهِم المجتمع الإسلامي أنّ وجهته واحدة، ويُعلّمه كيف يتوحّد ويتّحد ويتضامن؛ لذلك أمر جميع المسلمين أن يتوجّهوا نحو جهة واحدة هي الكعبة الشريفة

(١) سورة البقرة: الآية ١١٥.

ويستقبلوها في صلاتهم. لكن لماذا الكعبة دون غيرها من الأماكن أو الأبنية؟ الجواب: لأنّ الكعبة هي أوّل موضع وضع للناس للعبادة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[1]. من جهة ثانية، من تولّى تشييد هذا البناء وترميمه وإعادة إعماره هم الأنبياء واحدًا بعد آخر.

من هذا المنطلق، فإنّ الوقوف والتوجّه نحو الكعبة هو نوع من الاتصال بالتاريخ، والوحدة والتوحّد في مدرسة الأنبياء عبر الزمان. أضف إلى ذلك، إنّ القبلة (الكعبة) رمز الاستقلال (استقلال المؤمنين)؛ لأنّ اليهود والنصارى كانوا يُعيّرون المسلمين بأنّهم يتوجّهون إلى قبلتهم (بيت المقدس)، فكانوا يقولون للمسلمين: أنتم تصلّون باتجاه قبلتنا، وليس لكم أيّ استقلالية. والقرآن بيّن هذا المطلب بصراحة إذ يقول: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2]، وبذلك قطع الطريق على اليهود والمشركين، وأخرس ألسنتهم. منتهى القول: إنّ القبلة (الكعبة) هي رمز الاستقلال والوحدة، وهذه دروس الصلاة التربوية.

٥- **حضور الأرواح:** التنويم المغناطيسيّ وإحضار الأرواح من

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٠.

الأبحاث الرائجة اليوم في الأوساط والمجتمعات العلمية في العالم؛ لكنّنا لا نهدف إلى البحث في هذا الموضوع. هدفنا هو إحضار الروح الفارّة والشاردة، لتتوجّه إلى الله تعالى بواسطة الصلاة؛ أن نعيد هذا التلميذ الفارّ إلى صفّه، وأن نُرجع العبد الآبق إلى حضرة مولاه؛ فرجوع الروح إلى بارئها ومثولها بين يديه تعالى، من بركات الصلاة.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة الشاكين، وهو في مقام الشكوى إلى الله تعالى على نفسه: **«إلهي إليك أشكو نفسًا بالسوء أمارة، وإلى الخطيئة مبادرة... ميّالة إلى اللهو واللعب، مملوءة بالغفلة والسهو، تُسرع بي إلى الحوبة، وتسوّفني بالتوبة»**. إنّ النفس أشبه بالطفل اللعوب الذي يميل دائمًا إلى اللهو واللعب، فإذا لم يُراقبه والده أفلت من يده، ومال إلى كلّ مكان يطلب اللعب، فهو في ذلك معرّض دائماً للخطر. لذلك، فإنّ أفضل طريق لضبط هذه النفس المتمرّدة ومراقبتها وجلبها إلى الطريق القويم، أن يُحضرها الإنسان عدّة مرّات في اليوم، لتكون في محضر الله تعالى، فيزيل غفلتها، لتنجو من الغرق في مستنقعات الدنيا ومنزلقاتها.

٦- **الولاية على الوجود:** من بركات الصلاة والعبادة أنّ الإنسان يُمكنه أن يتسلّط تدريجًا على الوجود.

الخطوة الأولى: من المؤكّد أنّ التقوى تُنير بصيرة الإنسان

وتمنحه الرؤية ليميّز بين الحقّ والباطل. يقول المولى تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[1]، ويقول في آية أخرى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾[2]. إذن، التقوى التي أساسها العبودية لله تعالى، وعلى رأسها الصلاة، هي خطوة باتجاه النورانية والتحلّي بالبصيرة والرؤية.

الخطوة الثانية: من يتقبّل الهداية الإلهية، ويدور في فلك الحقّ، فإنّ الله تعالى سيزيده هدى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[3]. فهداية المؤمنين ونورهم لا يتوقّف، بل هم في حالة قرب ورشد وكمال دائم، بدليل تسليمهم وعبوديّتهم، وبذلك يتّسع شعاعهم الوجودي، ويكبر أكثر فأكثر.

الخطوة الثالثة: يفتح المولى تعالى للمؤمنين سبلًا كثيرة من الهداية، للوصول إلى الكمال، في مقابل جهدهم وسعيهم في سبيل الله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[4].

الخطوة الرابعة: هؤلاء المهتدون إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا، واعتذروا إلى الله تعالى بمجرّد أن وسوس لهم الشيطان، وأراد إغواءهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[5].

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٩.
(٢) سورة الحديد: الآية ٢٨.
(٣) سورة محمد: الآية ١٧.
(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

الخطوة الخامسة: إقامة الصلاة أفضل عامل لبناء الذات، وتجنُّب الفحشاء والمنكر، لأن الصلاة تنهى المؤمن عن ارتكاب المعاصي: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾[1].

عندما يعتلي الإنسان هذه الدرجات ويرتقي هذا السلّم ويخطو هذه الخطوات المباركة، يشعر بأنّ له على نفسه سلطة ويجد أنّه قادر على التحكّم بها بإبعادها عن الوسوسة والانزلاق والانحراف، لا بل عندما يتعرّض إلى ضغوط الوسوسة، وأهواء النفس والطاغوت، يستعين بالصلاة والصبر، ويستمدّ منهما القوّة والقدرة في مواجهة هذه الضغوطات: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[2].

الخطوة السادسة: المتّقون الذين أشرق النور الإلهيّ على صفحات وجودهم، يتقدّمون في كلّ صلاة يُصلّونها خطوة إلى الأمام، لأنّ الصلاة ليست تكرارًا (كما يظن البعض)، بل هي معراج، وهي تشبه السلّم الذي تتشابه درجاته في الشكل؛ ولكنّها ليست في مستوى واحد، فكلّ خطوة من قدم الإنسان تجعله يرتفع إلى الأعلى. أو كمثل إنسان يحفر بئرًا، فقد يبدو عمله بحسب الظاهر تكراريًّا، إذ يفعل الشيء نفسه دائمًا يحفر ويستخرج التراب؛ ولكنّ هذه الحركات المتشابهة تنزل به إلى أعماق الأرض، ومع كلّ ضربة معولٍ يضربها يكشف عن عمقٍ جديدٍ. والعبادات-

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٥.

ومنها الصلاة- هي أعمال ظاهرها التكرار؛ لكنّها في الواقع ارتقاء في سلّم الكمال، وتعمّق في المعرفة والإيمان. ولا يرضى المصلّي بأن يكون عمره مرتعًا للشيطان، كما ورد في دعاء مكارم الأخلاق للإمام سيّد السجّادين زين العابدين عليه السلام: «**فإن كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ...**»[1]

فليس الشيطان وحده هو من يسحق روح الإنسان، ويجعله غافلًا عن الحقّ والحقيقة، بل الوهم والخيال، كذلك، يجعلان الإنسان غافلًا عن الحقّ. والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان يقظًا حتّى وهو نائمٌ، أمّا المحجوبون من أهل الدنيا فهم في صلاتهم غافلون وعنها ساهون، يتلاعبون بها كيفما شاؤوا، وما أجمل قول الشاعر الإيرانيّ جلال الدِّين الرومي إذ يُقارن بين يقظة قلب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وغفلة غيره، فيقول: «**قال الرسول تنام منّي العيون ولا ينام القلب عن ربّ الأنام، وأمّا أنت فإنّك ساهر العين غافل القلب، وأما أنا فإنّ نومي يفتح الباب بيني وبين ربّ العباد**». ويقول في محلٍّ آخر متحدّثًا عن تأثير الوهم في القلب: «**القلب كالريشة في مهبّ الرياح، يسبيها يمينًا ويسارًا جزافًا ويتركها أسيرة الوهم والاختلاف**».

واعلم أنّ النفس إذا لم تُقيَّد ولم يُسيطِر عليها صاحبها فإنّها تجرّه إلى الفساد: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾[2]؛

(١) السيد الأبطحي (شرح وتحقيق)، الصحيفة السجادية، ص ١١١.
(٢) سورة يوسف: الآية ٥٣.

لذلك جعل الله تعالى الجنّة للمؤمنين المتّقين، الذين يقرنون القول بالعمل والكلام بالفعل، ولا يطلبون العلوّ والفساد في الأرض، ولا يتمنّون ذلك حتّى في قلوبهم وخواطرهم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، فأولياء الله لهم قدرة على التحكّم في أفكارهم وخواطرهم وليسوا محكومين لها. وهم بعد خلوصهم في عبوديّتهم لله تعالى، يُسلّطهم الله على نفوسهم، فيسدّون عليها كلّ أبواب الوساوس والخواطر الفاسدة، فلا يطرق أبواب قلوبهم خاطر سوء. وعلى حدّ قول الشاعر الإيرانيّ: «**أنا كالطير في أوج الفضاء، أنّى ينالني ذباب الأفكار البالية**».

وعندما يصل الإنسان إلى النور والمعرفة، ويروّض نفسه، ويضبطها، ويوجّه روحه إلى رضا الله تعالى، ويتذوّق حلاوة صلاة العارف العاشق البصير، يتسلّط على نفسه، فتكون له الولاية عليها؛ عندها يستطيع أن يصل إلى مرحلة الولاية على الوجود، فيصير مستجاب الدعاء، ويصير ربانيًّا في أفعاله وسلوكه. ومعجزات الأنبياء تقع في هذا الصراط وتُصنّف على هذا الأساس، فالمعجزات التي يأتون بها هي شكلٌ من أشكال الولاية على الوجود التي يمنحهم إيّاها الله ويقدرهم عليها لما هم عليه من رقيّ النفس وخلوصها وارتباطها بمعدن الوجود.

(١) سورة القصص: الآية ٨٣.

من هنا، ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**العبودية جوهرة كنهها الربوبية، فما فقد في العبودية وجد في الربوبية، وما خفي عن الربوبية أُصيب في العبودية**».[1] وقد رُوي في الحديث القدسيّ: «**لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببته صرت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها**»[2]؛ وبذلك يصل إلى مقام إبراهيم الخليل عليه السلام حيث يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3]، وفي هذه الحالة ينطبق عليه وعد الله إذ يقول: «**إن سألني أعطيته وإن دعاني استجبت له**»[4].

سمات الصلاة:

إنّ كلّ ما يُقال ويُكتب في الصلاة لا يؤدّيها حقّها، فكيف يمكن بيان عمود الدِّين، وعلم الإسلام، وتركة الأديان والأنبياء ووصيّتهم، ومحور قبول جميع الأعمال، في عددٍ من الجمل أو الفقرات؟!

- الصلاة برنامج يوميّ صباحيّ ومسائي، فكلماتها هي أوّل ما يجب على الإنسان النطق به عندما يدرك الصباح، وآخر ما يجب عليه قوله قبل أن يأوي إلى فراشه، وبالتّالي هي الذكر

(١) منسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، ص ٥٩٧.
(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص ٣٥٢.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٦٢.
(٤) علاء الدِّين الهندي، كنز العمال، ج١، ص ٢٣١.

الذي نفتتح به نهارنا ونختمه.

- وترمز المطالبة بالصلاة في السفر والحضر، في الأرض وفي السماء، للفقير والغنيّ، ترمز إلى أنّ على الإنسان المحافظة على علاقته باللّه تعالى أينما كان وأيًّا كانت حالته.
- الصلاة هي الأيديولوجيا العمليّة للإنسان المسلم، فهو ينطق في صلاته بعقيدته كلّها تقريبًا ويستذكر فيها أفكاره وتمنّياته وأحلامه وطموحاته الأساسيّة.
- الصلاة حصن القيم، وهي المانعة من تشتّت شخصية الأفراد وأعضاء المجتمع؛ لأنّه إذا كانت قواعد البناء وأعمدته ضعيفة فإنّ البناء سينهار لا محالة.
- أذان الصلاة صُور التوحيد، وصوت نفيره، فهي الجامع والمنظّم لجيش الإسلام المتفرّق، يجمعه في صفٍّ واحدٍ وتحت لواء واحد، وينظّمه خلف إمام عادل.
- إمام الجماعة في الصلاة واحدٌ، وهذا يرمز إلى وحدة الأمّة ووحدة وجهتها وقيادتها، وذلك من أجل حسن إدارة المجتمع الإسلاميّ.
- وإمام الجماعة في الصلاة يراعي حال أضعف الناس، وهذا الأمر يعدّ درسًا اجتماعيًّا، يُعلّمنا ضرورة أن تراعي الأنظمة الاجتماعيّة والقرارات الإداريّة وغيرها حال ضعاف الناس من الفقراء أو غيرهم من المتّصفين بالضعف أيًّا كان نوع

هذا الضعف. وقد ورد أنّ رسول الله ﷺ لم يكن يراعي حال المأمومين وحدهم، بل كان إذا سمع طفلًا يبكي أسرع في صلاته كي لا يؤخّر أمّه المصلّية عنه.

- إن أوّل أمر صدر بعد خلق الإنسان هو أمر السجود: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1].
- وبيت الصلاة الأول وأول نقطة من الأرض خرجت من تحت الماء، وظهرت في اليابسة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2].
- أوّل عمل قام به رسول الله ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة بناء المسجد.
- الصلاة هي أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر أيضًا، ففي كلّ يوم نسمع عدّة مرّات «**حيّ على الفلاح**»، «**حيّ على خير العمل**»، وكلّه أمر بالمعروف، فهل هناك معروف فوق معروف الصلاة؟ إنّها أمرٌ بأفضل المعروف؛ إنّها الصلاة. من جهة أخرى فإنّ الصلاة تقف حاجزًا بين الإنسان وارتكاب الفساد والفحشاء: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[3].

(١) سورة الحجر: الآيتان ٢٨- ٢٩.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٦.
(٣) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

- حركات الصلاة مبنيّةٌ على العلم والمعرفة والبصيرة، معرفة الله تعالى الذي نقوم بأمره وله، ونأنس به؛ لذلك، نهانا القرآن الكريم عن الصلاة في حالات السكر والكسل، لكي يلتفت الإنسان إلى ما يقوله أثناء الصلاة، ويتبصّر به ويدركه، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾(١)، ويقول أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾(٢)، ويقول كذلك: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾(٣). ﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾(٤). فهذه الآيات تدلّ على قبح السكر والكسل وغيرهما كما تدلّ على تضاعف هذا القبح في حالة الصلاة.

- الصلاة هي مصدر الوعي وباب من أبواب المعرفة، فصلاة الجمعة التي تُصلّى بدل الظهر من يوم الجمعة تتألّف من

(١) سورة النساء: الآية ٤٣.
(٢) سورة النساء: الآية ١٤٢.
(٣) سورة التوبة: الآية ٥٤.
(٤) سورة التوبة: الآية ٥٤.

خطبتين وركعتين، وفي الخطبتين يدعو الإمام إلى التقوى ويُعلّم أمور الدِّين ويتحدّث عن كلّ ما يهمّ المجتمع الإسلاميّ، وبذلك ينشر الوعي والمعرفة بين المصلّين. وقد يُستفاد من تقديم الخطبة على الصلاة أنّ الوعي أولًا ثمّ الصلاة.

- الصلاة خروج من الذّات وعروج نحو الله تعالى، والقرآن الكريم يُعبِّر عن هذه الحالة؛ أي حالة الخروج إلى الله تعالى، بتعبير يبلغ الغاية في اللطف والإعجاز والبيان، إذ يقول عزّ شأنه: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1]. وعلى الرغم من أنّ ظاهر هذه الآية هو الحديث عن الجهاد والهجرة للقتال في سبيل الله وتحت راية رسوله، ولكن يمكن توسعة مفهوم الخروج ليشمل الخروج إلى الصلاة، يقول الإمام روح الله الموسوي الخميني، في هذا المجال: «**إن الهجرة من منزل القلب إلى الله تعالى من مصاديق هذه الآية، إنّ الهجرة من الإعجاب والغرور والأنانية نحو المعنويات والروحانيّات هي من أكبر الهجرات**»[2].

(١) سورة النساء: الآية ١٠٠.

(٢) الإمام الخميني، أسرار الصلاة، ص ١٢.

- مثل الصلاة بين سائر العبادات كمثل الإنسان الكامل بين الناس.
- الصلاة بمنزلة اسم الله الأعظم، لا بل هي اسم الله الأعظم.
- يتجلّى في الصلاة أمران هما عزّة الله وعبوديّة المصلّي كأجلى ما يكون التجلّي، وما أشمخ هذا المقام.
- «الصلاة علَم الإسلام» ورايته، وإذا دقّقنا قليلًا في جملة «الصلاة علَم الإسلام» نستنتج الآتي:

العلامة الدالّة على الإيمان هي الصلاة؛ لأنّ العلَم هو الذي يُميّز الجماعة التي ترفعه.

الاستخفاف بالصلاة استخفاف بالإسلام؛ كما أنّ إهانة العلَم إهانة لأصحابه.

الصلاة رمز القوّة الاجتماعيّة للإسلام؛ لأنّ العلَم رمز قوّة البلد ودليل تماسكه.

الصلاة والقرآن:

إذا عدنا إلى كتاب الله تعالى، نجد أنّ المولى تعالى يطرح الصلاة إلى جانب القرآن فيقول: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1]، ويقول عزّ وجلّ في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[2]، وقد عبّر الله سبحانه عن الكتاب بأنّه

(١) سورة فاطر: الآية ٢٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٠.

ذكر وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]، كما عبّر عن الصلاة بقوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[2]. وليس هذا فحسب بل ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[3]، أنّ المراد من قرآن الفجر هو صلاة الصبح. ومن مؤشّرات العلاقة المتينة بين الصلاة والقرآن أنّ جزءًا مهمًّا من أجزاء الصلاة هو القراءة أي قراءة سورة الفاتحة وسورة أخرى معها. وأخيرًا ذُكرت الصلاة في أطول سور القرآن (سورة البقرة) وفي أقصر سورة من سوره (الكوثر).

الصلاة وقانون العقوبات:

لم يُشرَّع القصاص في الدِّين الإسلامي فقط، بل جاء في جميع الأديان، فجزاء من قطع أذنًا، أن تُقطع أذنه، وجزاء من كسر سنًّا أن تُكسر سنّه، ذلك من أجل إقامة العدالة في الأرض. وجاء في القصاص أنّ السارق تُقطع يده، ولكن تُقطع الأصابع دون الكفّ حفاظًا على عضوٍ من أعضاء الصلاة، وقد استند الإمام عليه السلام إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾[4]؛ لتبرير العفو عن الكفّ وقطع الأصابع في حدّ السرقة.

(١) سورة الحجر: الآية ٩.
(٢) سورة طه: الآية ١٤.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٨.
(٤) سورة الجن: الآية ١٨.

العبادة والولاية:

تكون العبادة ذات قيمة عندما لا تكون سطحية، وعندما تكون مقرونةً بالعلم وبمعرفة القائد الإلهيّ، أي مقرونة بالولاية والولاء الصحيح، وعندما يرافقها الخشوع والآداب الخاصة بها. إذا عدنا إلى التاريخ نجد أنّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قد ابتُلي بجماعة من المصلّين المتحجّرين الجاهلين، عُرفوا في التاريخ باسم (المارقين والخوارج)، وكانت جباه هؤلاء سوداء من أثر السجود وطوله؛ لكنّهم خرجوا على إمام زمانهم الإمام عليّ عليه السلام، وسلّوا سيوفهم في وجهه وحاربوه. ومن المؤسف أن تتكرّر هذه الظاهرة مع الإمام المهديّ عجل الله فرجه، فقد ورد في الأخبار التي تتحدّث عن آخر الزمان، أنّ جماعة من ملازمي المساجد يخرجون في وجهه ويعارضونه.

ولا تظنّوا أنّ الذين اجتمعوا في كربلاء لقتال الإمام الحسين عليه السلام كانوا جميعًا من تاركي الصلاة، كلّا، كانوا من المصلّين، وبعضهم كان لا يترك صلاة الجماعة، ولكنّ معاوية ويزيد وأمثالهم كانوا أئمّة جماعتهم!

نعم، إنّ العبادة مع الجهل تكون نتيجتها قتل أعبد الناس وهو ساجد في محرابه، ليس هذا فحسب، بل عدّ قتل أمير المؤمنين عليه السلام وهو يصلّي في المسجد عبادة، وبقصد التقرّب إلى الله تعالى.

يجب أن تترافق جميع العبادات مع المعرفة؛ معرفة القائد الحقّ وطاعته، وهذا الأمر لا ينطبق على الصلاة فحسب؛ بل جاء في الأحاديث أنّ الله تعالى قد أوجب الحجّ على الناس ليجتمع الناس حول الكعبة في مكّة، فيجتمعون مع إمامهم المعصوم ويرتبطون به: **«إنّما أُمِر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيتطوفوا بها ثم يأتوننا فيخبرونا بولايتهم، ويعرضون علينا نصرتهم»** [1]، و **«ولتُعرف آثار رسول الله ﷺ وتُعرف أخباره ويُذكر ولا يُنسى»**[2]؛ لكن ما يجري اليوم أنّ الملايين تطوف حول الكعبة وتجتمع في مكّة، لكنّها متفرّقة مشتّتة، لأنّه ليس لها إمامٌ وقائدٌ إلهيٌّ، يقودها نحو الله وباتّجاهه. فالأمّة في هذا العصر تتوفّر على إمكانيّات اقتصاديّة هائلة ولكنّها تذهب هدرًا وتجد الأمّة نفسها عاجزةً أمام عدد قليلٍ جدًّا شكّلوا دولة أسموها إسرائيل.

إنّ الإسلام مجموعة متكاملة وكلٌّ لا يتجزّأ، فالصلاة من دون ولاية لا تُقبل، والصلاة من دون دفع الزكاة لا تُقبل أيضًا، كما أنّ الإنفاق من غير صلاة لا يُقبل. إن أوامر الإسلام وأحكامه مثل أعضاء البدن الواحد، فلا يقوم عضو بوظيفة عضو آخر، ولا يأخذ عضو مكان عضو آخر، فلا العين تقوم بعمل الأذن، ولا الأذن تقوم بوظيفة الرجل أو اليد. كذلك الإسلام، الصلاة لا تقوم مقام

(١) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٦٢.
(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٩.

الزكاة، فكما أنّ هذين العملين لا يمكن لأيّ منهما أن يحلّ محلّ الجهاد في سبيل الله تعالى، بل إنّ جميع هذه المسائل والأحكام هي الإسلام، فالإسلام يتشكّل من هذا الكلّ.

درجات العبادة:

إذا سألنا الطفل عن سبب حبّه والديه؟ فإنّه سيقول: أحبّهما من أجل الهدايا والألبسة والحلوى و... أمّا إذا سألنا الشابّ، فسيقول: إنّ الوالدِّين هما علامة شخصيّتي وهويّتي، وهما اللذان ربّياني وأحبّاني؛ فإذا أصبح الشاب أكثر رشدًا ومعرفةً، عندها يُصبح الأنس بالوالدِّين - بالنسبة إليه - له لذّة خاصة، فلا يُفكِّر بعد ذلك بالألبسة والأطعمة والحلوى، ولا حتى بالتربية والتعليم، بل يأنس بهما، وكثيرًا ما نرى البعض يتّخذ من خدمة والديه وسيلةً يتقرّب بها إلى الله تعالى، ويعدّ ذلك كمالًا، فيفكّر أبعد وأسمى من المادّيات والتربية، وحتّى من الأنس. وعبادة الله تعالى هي كذلك أيضاً، فكلّ فردٍ يعبد الله تعالى لدليلٍ وسببٍ، لذلك فللعبادة مراحل:

المرتبة الأولى: من الناس من يعبد الله تعالى لأجل نعمه، ويحاول بالعبادة تقديم واجب الشكر لله سبحانه، كما يُخاطب القرآن الكريم عامّة الناس في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾[1]، هذه هي

(١) سورة قريش: الآيتان ٣- ٤.

المرتبة الأولى من مرّاتب العبادة، والتي نُسمّيها عبادة الشكر، هي تُشبه- تمامًا- حبّ الطفل لوالديه، لأنّهم يشترون له الحلوى والألبسة والألعاب.

المرتبة الثانية: في هذه المرتبة يعبد الإنسان المولى تعالى بسبب آثار العبادة وبركاتها، فيُلاحظ الآثارَ الروحيّة والمعنوية للصلاة، كما يقول القرآن: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1]. هذه العبادة التي نُسمّيها عبادة الرشد، تُشبه احترام الشاب لوالديه لأنّهما ربّياه وعلّماه، وحفظاه من الخطر والانحراف.

المرتبة الثالثة: وهي مرتبة أعلى وأسمى مقامًا من المرّاتب السابقة، حيث نقرأ أنّ المولى تعالى يقول لموسى عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[2]. ومن المؤكّد أنّ موسى عليه السلام لم يكن يُقيم الصلاة من أجل الطعام والشراب، ولا بسبب اجتناب الفحشاء والمنكر، فهو نبيٌّ من أنبياء أولي العزم، وهو بعيدٌ كلّ البعد عن الشهوات والمنكرات، إنّما صلاته كانت من أجل الأنس بالله تعالى والذكر له، فالأنس بالله عزّ وجلّ بالنسبة إلى أولياء العزم أفضل داعٍ يدعوهم إلى العبادة.

بلى الأطفال هم الذين يجلسون في صدر المجلس طمعًا بالتكريم والضيافة. وفي مقابل هذا الصنف من العلاقة بالكبار والعظماء

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

(٢) سورة طه: الآية ١٤.

ثمّة من يتقرّب منهم طمعًا بالكرامات المعنويّة التي يتوفّر عليها الكبار، وعند هذا الصنف من الناس الأنس هو المعيار في الرغبة والتقرّب من العظماء.

المرتبة الرابعة: هذه المرتبة هي الأعلى والأفضل بين المرّاتب المتقدّمة، فهي ليست عبادة شكر ولا رشد ولا أنس، بل هي عبادة يُراد منها القرب فحسب، والقرب المقصود هو القرب من الله عزّ وجلّ. وفي القرآن الكريم أربع آيات يجب السجود عند قراءتها، في واحدة من هذه الآيات يُطرح الوصول إلى مقام القرب نتيجة العبادة، يقول الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[1].

وبناءً على ما تقدّم يتبيّن أنّ العبادة ليست مرتبة واحدة بل مرّاتب ودرجات تختلف باختلاف الأشخاص ومستواهم في العلم والمعرفة والوعي.

سمات العبادة:

١. اعلم أنّ العبادة هي التي أهّلت الرسول الأكرم ﷺ ليسري به الله تعالى ليلة المعراج: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[2].

(١) سورة العلق: الآية ١٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١.

٢. العبادة هي التي مهّدت السبيل لنزول الملائكة: ﴿نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[١].

٣. العبادة هي التي تجعل الإنسان مستجاب الدعاء، لأنّ «**الصلاة عهد الله**» وكلّ من يفي بعهد الله تعالى، فإنّ الله سبحانه يفي بعهده: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[٢]. والواقع أنّ الإنسان من دون العبادة يهوي إلى مرتبة أدنى وأخسّ من مرتبة الحجارة والجماد؛ لأنّ بعض الحجارة يهوي من خشية الله، وبعضها تتفجّر منه المياه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٣]. هذا حال الجمادات، لكن بعض البشر لا يُطأطئون رؤوسهم حتى لمنبع الفيض كلّه، خالق الوجود عزّ وجلّ شأنه.

٤. العبادة علامة من علامات قوّة الإرادة عند الإنسان، ومؤشّر إلى شدّته في مواجهة الغرائز والأهواء، فقيمة الإنسان تتجلّى وترتفع عندما يكون محاصرًا بكلّ هذه الغرائز والأهواء، ويتمكّن من الانعتاق منها جميعًا، فيتوجّه نحو الحقّ، ويترك كلّ الميول والأهواء خلف ظهره، ويسير

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣.
(٢) سورة البقرة: الآية ٤٠.
(٣) سورة البقرة: الآية ٧٤.

سالكًا إلى الله تعالى؛ وإلا فإنّ الملائكة في حالة دائمة من العبادة والتسبيح؛ لأن لا شهوة لها ولا غضب.

٥. العبادة تجعل أقلّ الناس شهرةً في الأرض أكثرهم شهرة في السماء.

٦. العبادة تعني التطلّع والنظر إلى الوجود كلّه من أعلى.

٧. العبادة تفتّح الاستعدادات والمواهب العرفانيّة والمعنويّة الكامنة في وجود الإنسان.

- العبادة هي القيمة التي يكسبها الإنسان بإرادته واختياره، بخلاف القيم العائليّة، أو الاستعدادات الباطنية، فهذه الخصائص على الرغم من أهميّتها، ليست اختيارية، ولا يكتسبها الإنسان بجهده.
- العبادة تجديد العهد والميثاق مع الله تعالى، وهي التي تحفظ الحياة المعنوية وتُبقيها نضرة ومتجدِّدة.
- العبادة تمنع من ارتكاب الذنوب، لا بل تمحو آثارها، فذكر الله يسدّ باب الذنوب والمعاصي.
- العبادة هي التي تملأ وعاء الروح بذكر الله، وما سوى ذلك هو ظلم لجوهر الإنسان.
- العبادة تمنح الأرض والتراب قيمة وقداسة، فالأرض غير العاديّة عندما تتحوّل إلى مسجدٍ للصلاة تكتسب قداسة تمنع غير المتطهّرين من الدخول إليها.

- العبادة والعبودية قيمة بحدّ ذاتها، بغضّ النظر عن الآثار التي تترتّب عليها، كما لو كانت دعاءً لم يُستجبْ.
- العبادة في السرّاء والضرّاء، أثناء الفرح، وفي الأوقات العصيبة؛ فالمولى تعالى يُعطي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الكوثر ثم يوصيه بالصلاة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾[1]. ويوصيه بالصلاة في حالات الشدّة فيقول له عزّ وجلّ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[2].

الصلاة تحلّ المشكلات:

يوصي الإسلام الحنيف ببعض الصلوات الخاصة لرفع الحاجات، فالإنسان كلّما كانت له حاجة، أو واجهته مشكلة، أو أمر شديد، يتوجّه إلى الله تعالى بصلوات خاصة مذكورة ليطلب منه فيها حلّ مشكلته، ويحسن بنا في هذا السياق ذكر بعض النماذج:

صلاة جعفر الطيار:

جعفر بن أبي طالب الملقّب بالطيّار هو أخو الإمام علي عليه السلام، هاجر إلى الحبشة في بداية الدعوة، واستطاع هناك برسوخ إيمانه وحكمته وقوّة استدلاله أن يجذب قلب ملك الحبشة وعددًا من النصارى، ويؤسّس للإسلام في قارة أفريقيا. استشهد جعفر في معركة مؤتة، وقُطِعت يداه قبل أن يُستشهد، فأبدله الله تعالى بهما

(١) سورة الكوثر.
(٢) سورة البقرة: الآية ٤٥.

جناحين في الجنّة، فهو يطير بهما في الجنّة مع الملائكة كيف يشاء، كما ورد في بعض الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولأجل ذلك اشتهر بهذا اللقب في التاريخ الإسلاميّ.

وقد ورد في الرواية عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام قال: قال له رجل: «**جُعلت فداك أيلتزم الرجل أخاه؟ فقال: «نعم إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم افتتح خيبر أتاه الخبر أنّ جعفرًا قد قدم، فقال: «والله لا أدري بأيّهما أنا أشدّ سرورًا، بقدوم جعفر أو بفتح خيبر»**، قال: «**فلم يلبث أن جاء جعفر، قال: «فوثب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالتزمه وقبّل ما بين عينيه، قال: فقال له الرجل: الأربع ركعات التي بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر جعفرًا أن يُصلّيها؟ فقال: لمّا قَدِم عليه السلام عليه قال له: «يا جعفر ألا أُعطيك، ألا أمنحك؟ ألا أحبوك؟»**. قال: فتشوّق الناس ورأوا أنّه يُعطيه ذهبًا أو فضّةً، قال: بلى يا رسول الله، قال: صلّ أربع ركعات متى ما صلّيتهن غُفر لك ما بينهنّ، إن استطعت كلّ يوم، وإلا فكلّ يومين، أو كلّ جمعة، أو كلّ شهر، أو كلّ سنة، فإنّه يُغفر لك ما بينهما»[1]. وقد وردت أخبار عدّة عن هذه الصلاة على لسان أئمة الهدى عليهم السلام، ونُقلت بسندٍ معتبر من طرق الشيعة والسنّة. وقد دُعيت بصلاة الحبوة، وعُرفت باسم الإكسير الأعظم. وورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أنّ من همّه**

(١) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٤- ٢٥. وكيفية هذه الصلاة مذكورة في الكتب المتخصّصة، انظر مثلًا: بحار الأنوار، وكتب الأدعية مثل مفاتيح الجنان، ومفتاح الجنّات، وغيرهما. (المحرّر)

شيء أو عرض عليه حاجة أو مشكلة فليصلّ صلاة جعفر وليدعو بعدها فإنّ دعاءه مستجاب بإذن الله تعالى».

وهذه الصلاة واحدة من عشرات الصلوات المستحبّة التي وردت في رفع الهمّ والغمّ والمشكلات وطلب الحاجات، وقد طُبع مؤخّراً كتابٌ تحت عنوان الصلاة المستحبّة حيث ورد فيه حوالى (٣٥٠) صلاة مستحبّة بالاسم والكيفية، وهذا يُبيّن أهمّية الصلاة، بحيث ورد لكلّ مناسبة صلاة خاصة.

الصلاة والقيادة:

عندما تُقام الصلاة بواسطة القادة الربّانيين فإنّ بساط الظلم سوف يتمزّق، وعرش الطاغوت سوف يتزلزل. نقرأ في التاريخ كيف شعر المأمون أنّ حكومته لن تقوم لها قائمة، عندما أراد الإمام الرضا عليه السلام إقامة صلاة العيد بتلك العظمة، لذلك، أدرك المأمون أنّ حكومته الظالمة سوف تتزلزل لو أتمّ الإمام صلاته، وبذلك سينتهي حكم بني العباس؛ لذلك أمر بإرجاع الإمام من وسط الطريق، ولم يدعه يقيم الصلاة ويُتمّها. من هنا، نفهم اليوم لماذا صلاة المسلمين من دون أثر يُذكر، دليل ذلك أنّهم يعملون ببعض القرآن لكنّهم نسوا البعض الآخر، فلا يعملون به، فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

(١) سورة النور: الآية ٥٦.

بعض المسلمين اليوم يُقيمون الصلاة ولا يُأتون الزكاة، والبعض الآخر يُصلّون ويُزكّون أموالهم؛ لكنّهم لا يُطيعون إمامهم وقائدهم، لا بل يتولّون الكفّار، وبعبارة أخرى مختصرة: يؤمنون بالله لكن لا يكفرون بالطاغوت. وهذا إيمان ناقص. أمّا القرآن فيوصينا بـ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ...﴾[1]، وهذا يعني أنّ المطلوب هو الإيمان بالله تعالى والكفر بالطاغوت، على حدٍّ سواء، في حين أنّ المسلمين قد نسوا البراءة من الكفر والطاغوت، وهؤلاء وصفهم القرآن في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[2]، يزعمون الإيمان وهم يتولّون الطاغوت ولا يكفرون به.

قداسة الصلاة:

للصلاة قداسة عظيمة إلى حدّ أنّ أداء بعض الأعمال (كالقسم والشهادة) لا يكون إلا بعد الصلاة. يشير القرآن الكريم في سورة المائدة إلى هذا المعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢) سورة النساء: الآية ٦٠.

إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴾[1]، فالشاهدان يُحبسان إلى ما بعد إقامة الصلاة، ثم بعد ذلك يُحضران ويُقسمان ويشهدان بالحقّ... ولعلّ اختيار وقت الصلاة للشهادة يعود إلى أنّ المرء في هذا الوقت يعيش آثار الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأنّه في هذا الظرف الزماني والمكاني يكون أقرب إلى الحق. (في أيّامنا الحاضرة تُقام مراسم القسم بإحضار القرآن الكريم فيضع الشاهد يده على القرآن ويحلف). أمّا القرآن فيصرّح في هذا الشأن أنّ القسم بعد أداء الصلاة.

شموليّة الصلاة وجامعيّتها:

خلق الله الإنسان والكون في أحسن تقويم ونظام، وشرّع له أفضل نظام تشريعيٍّ وأكمله؛ فمثلاً جعل في حليب الأمّ جميع الفيتامينات والموادّ التي يحتاجها الطفل الرضيع، وإذا نظرنا إلى أكبر أو أصغر حيوان فإنّا نرى هذا النظام يسري أيضاً؛ إذ إنّ يد القدرة الإلهيّة جعلت في خلق البرغشة الصغيرة كلّ ما جعلت في الفيل الضخم، وأضافت إليه الأجنحة التي لا توجد في الفيل. وإذا نظرنا إلى الجراد نرى أن عناية القدرة الإلهيّة جعلت فيه من

(١) سورة المائدة: الآية ١٠٦.

كلّ حيوان عضو، فرأسه يُشبه رأس الحصان، كذلك بالنسبة إلى أعضائه، فكلّ عضو منه يُشبه عضوَ حيوان آخر. أمّا إذا نظرنا إلى الإنسان فإنّا نرى أنّ المولى تعالى قد وضع فيه من كلّ ما خلق في الطبيعة، ففي الطبيعة صوت الرعد، وفي الإنسان صوت الصراخ، في الطبيعة نبات وشجر، وفي جسم الإنسان ينبت الشعر وينمو، في الطبيعة عيون وينابيع، وفي الإنسان كذلك عيون تحت لسانه تنبع فتزوّد الفم بالماء. وانظر إلى عروق الإنسان وشرايينه، كم هي شبيهة بالأنهار المائية في الطبيعة! إلى غير ذلك من الأعضاء البشرية التي تُحاكي الطبيعة، مرتفعات ومنخفضات، ماء عذب وماء أجاج. ولقد لخّص أمير البلاغة والكلام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في الشعر المنسوب إليه عظمة الإنسان على مستوى التكوين فقال: «**أتزعم أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر**».

هذا الأمر يسري أيضاً في الصلاة التي يظهر فيها الفنّ الإلهي، حيث جعل الله تعالى- بنحو ما- جميع القيم في الصلاة، فأيّ كمال له قيمة عند الإنسان ولا يوجد في الصلاة؟ وحتّى تتّضح صورة جامعيّة الصلاة بشكل أفضل، لا بدّ من الإشارة هنا إلى القيم والكمالات الكامنة في الصلاة:

- ذكر الله تعالى، قيمة بحدّ ذاته ووسيلة لطمأنة القلوب، والصلاة هي ذكر الله تعالى من أوّلها (الله أكبر) إلى آخرها.
- ذكر يوم القيامة، يُعدّ رادعًا للإنسان عن أعمال الفحشاء

والمنكر وارتكاب المعاصي، والصلاة تُذكّرنا «**بمالك يوم الدِّين**».

- السير على خطّ الأنبياء والأولياء والشهداء والصالحين قيمة، فنحن في الصلاة نقرأ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾.
- البراءة من الظلم والظالمين والضلال والضالّين في عبارة: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.
- العدالة: وتأتي على رأس جميع القيم، فالعدالة مطلوبة في إمام الجماعة، لذلك، فإنّ طاعة الإمام العادل والسير على خطاه وهديه أصل ذو قيمة اجتماعية كبيرة، إذ يجب التوحّد خلف القائد العادل، بدل التفرُّق والتشتُّت.
- في اختيار إمام الجماعة يجب الالتفات دائمًا إلى الأكثر عدالة وفقاهة وفصاحة و..
- الوقوف والتوجّه نحو القبلة يحمل بين طيّاته قيمًا كثيرةً: (**مكة**) المكان الذي تحمّل فيه بلال العذاب، مكان أضحية إسماعيل عليه السلام، مكان ولادة علي عليه السلام، مكان ظهور صاحب العصر عجل الله فرجه، مكان ابتلاء ابراهيم، ومكان عبادة جميع الأنبياء والأولياء.
- في الصلاة حركة دائمة، في كلّ صلاة، في الصباح والمساء، في السجود والركوع، في الجلوس والقيام، حركة في الذهاب

والإياب إلى المسجد والمصلّى. إذن، الصلاة حركة وجهد، وكلّ ذلك لله وإلى الله وفي الله سبحانه.

- الصلاة تجعل روح الإنسان طاهرة نقية نظيفة، ففي الصلاة ينفض الغبار عن الروح، يتساقط غبار التكبُّر والأنانية، لأنّ أعلى نقطة في جسم الإنسان تتمرّغ بالتراب عدّة مرّات كلّ يوم، أعلى نقطة تنزل إلى أسفل نقطة خاضعة للخالق؛ على أنّ السجود على التراب أفضل من السجود على الحجر، لأنّ التذلُّل يكون في التمرُّغ بالتراب.
- في الصلاة نسجد على الأرض، وعلى كل ما نبت في الأرض، ماعدا المأكول منه، فلا يُفكِّر الإنسان في بطنه أثناء الصلاة.
- في الصلاة نسجد على الأرض الطاهرة؛ لأنّه لا يمكن الوصول إلى الطهارة ومنبع الطهارة من الطريق النجس.
- البكاء خوفًا من الله تعالى قيمة أيضاً، والقرآن أثنى على السجود مع البكاء: ﴿سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.
- الصلاة خطّ إلهيّ، رُسم لنا منذ الولادة وحتّى لحظة الموت الأخيرة: فالطفل منذ لحظة الولادة الأولى، عندما يأتي إلى الدنيا، يؤذّن ويُقام في أذنيه، ويسمع من الأذان والإقامة: «**حيّ على الصلاة**»، وعندما يموت يدفن بإقامة صلاة الميت عليه، وما بين الولادة والموت- طوال حياته- يكون في حالة طاعة

وعبادة لله سبحانه: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[1].

- الصلاة صلة الإنسان بالطبيعة، فهي تجعله مرتبطًا بالطبيعة، فأثناء الصلاة- خصوصًا صلاة الصبح والظهر- ننظر إلى الشمس لنعرف وقت الصلاة، كذلك ننظر إلى النجوم لكي نعرف اتجاه القبلة، بالإضافة إلى ذلك، فإنّ بعض الصلوات المستحبّة- في أيّام مباركة خاصّة - مرتبطة بحركات القمر، لذلك نتابع حركته. أمّا الغسل والوضوء فنتوجّه إلى الماء، وفي السجود والتيمّم نتوجّه إلى التراب؛ هذه العلاقة بين الصلاة من جهة، وبين الشمس والقمر والنجوم والماء والتراب من جهة أخرى، من الذي أوجدها؟ أي مخطِّط حكيم أوجد هذا البرنامج؟

- الواجبات الدِّينية الأخرى أيضًا حاضرة في الصلاة بأشكال عدّة، ففي الصلاة نوع من الصوم إذ لا يجوز للمصلّي تناول الطعام والشراب في صلاته. والمصلّي يتوجّه إلى مكّة والكعبة التي يقصدها المسلمون ويحجّون إليها. والمصلّي يجاهد نفسه ويصطبر على الصلاة وهذا وجه الاشتراك بين الصلاة والجهاد، غير أنّ الصلاة جهاد أكبر، إنّها جهاد النفس، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهي تشترك

(١) سورة الحجر: الآية ٩٩.

في هذه الصفة مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- من جهة أخرى، الهجرة من الأفعال المهمّة في الإسلام، فهذا نبيّ الله إبراهيم عليه السلام حمل زوجه وابنه إسماعيل، وهاجر بهما إلى جانب الكعبة من أجل الصلاة، إذ يقول المولى تعالى على لسان نبيّه إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾[1]. واللافت أنّ إبراهيم عليه السلام لم يقل إنّي مسافر من أجل الحجّ، بل لإقامة الصلاة: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. لقد جعل المولى تعالى كلّ القيم في الصلاة، ومع الصلاة، ومن أجل الصلاة.

- إذا كانت النظافة والزينة من القيم، فالإسلام من جهته يوصي فيقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[2]، فالإسلام يؤكّد على النظافة والتعطُّر والتزيُّن، خصوصاً، عند الذهاب إلى المساجد لإقامة الصلاة، كما ويؤكّد على السواك، فقد ورد في الروايات أنّ الصلاة مع السواك تعدل سبعين صلاة من غير سواك، ونقرأ في الروايات أيضًا أنّ الإسلام يوصي بتجنّب تناول البصل والثوم، وكلّ ما يصدر رائحة قد تزعج المصلّين في الجماعة. هذه هي صلاة

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣١.

الإسلام، أمّا كيف هي صلاة بعض المسلمين؟ فمع الأسف أن نجد مسلمًا لا يُصلّي، أو مسلمًا يُصلّي خطأً، أو يُحافظ على شكل الصلاة ويُصلّي دون حضور قلبٍ، أو يُصلّي فرادى ويترك صلاة الجماعة، أو يُصلّي في آخر الوقت.

- والأهم من ذلك كلّه، أنّ المساجد كانت محلًّا يخدم فيه الأنبياء، فقد كان اشتغل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في بناء المسجد الحرام: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[1]. وكان زكريا عليه السلام خادمًا في المسجد. وأمّا أمّ مريم عليها السلام فقد نذرت جنينها ليكون خادمًا في بيت الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2]. هذه المساجد التي كان الأنبياء خدامها، قارن حالها بحال أكثر مساجدنا التي صار خدّامها اليوم- غالبًا- أفراد عاطلين عن العمل، أو عجزة وطاعنين في السنّ، أو مرضى وفقراء وفي بعض الحالات جهلة غير متعلّمين، وفي بعض الأحيان من سيّئي الخلق! لكن السؤال: لماذا يعدّ كنس الغبار من حرم أئمة

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٥.

الهدى عليهم السلام افتخارًا، أما المساجد وبيوت الله فلا؟! لماذا مساجدنا يجب أن تكون مكانًا إذا دخل الإنسان إليه شعر بالحزن والغمّ والكسل؟ هل أصبحت المساجد مكانًا للعزاء والحزن، ومركزاً لتوابيت الموتى وقراءة الفاتحة على الأموات، بحيث نراها دائمًا مكسوّة بالسواد؟! بالطبع شهدنا مؤخّراً حركة جيّدة في المساجد، حيث نرى الكثير منها يُجهّز بالمكتبات العامّة، كما تشهد حركة فعّالة من قبل الشباب، وبعضها جُهّز بصناديق القرض الحسن، وغير ذلك من الأمور والتجهيزات. ما أفضل وأجمل الحديث الشريف الذي يقول: **«ثلاثة يشكون إلى الله عزّ وجلّ، مسجد خراب لا يُصلّي فيه أهله، وعالم بين جهّال، ومصحف معلَّق قد وقع عليه الغبار لا يُقرأ فيه»**[1]. إنّ الكلام حول المساجد كثير، وقد تمّ مؤخّراً تأليف كتاب تحت عنوان: **«سمات المساجد»**، طبع في مجلّدين اثنين، هذا الكتاب يوضّح مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي.

أمّا إذا عدنا إلى صدر الإسلام، فنجد أنّ المسجد كان مكاناً لاجتماع المسلمين، يتشاورون فيه ويتّخذون القرارات ويضعون الخطط والبرامج، وكان محلّاً للعلم والتعلُّم، حيث تُعقد فيه

(١) الكافي، ج ٢، ص ٦١٣.

حلقات العلم، ومقرًّا للمجاهدين والمقاتلين، ومحلّاً للتباحث في شؤون المسلمين ومساعدة المرضى والفقراء وحلّ مشاكلهم، وكان مركزًا لنهوض المسلمين والثورة في وجه السلطان الظالم، حيث كانت تُقام فيه الخطب الحماسيّة التي تُشجّع الناس على الثورة في وجه الطواغيت.

من هنا، فإنّ المسلمين اهتمّوا بالمساجد، طوال التاريخ، ومن منطلق هذه المكانة السامية والمقام الرفيع للمسجد، فقد عمد المسلمون إلى استخدام أفضل المهارات والفنون المعمارية في بناء المساجد، وبذلوا الأموال الكثيرة، ووقفوها في سبيل بقاء المساجد عامرّة وقائمة بأفضل صورة.

في أجزاء الصلاة وأركانها

النية

النيّة هي أول ركن من أركان الصلاة؛ والمقصود من النيّة أن يعلم الإنسان ويعي ماذا يفعل وماذا يقول، وإلى من يتوجّه في أفعاله وأقواله. إنّ قيمة أيّ عمل تكون بالنية والدافع الذي من أجله نقوم بالفعل، وليس العمل صرفًا. لذلك، فإنّ حساب من يقف عند الإشارة بسبب حفظ النظام واحترام القانون، يختلف عن حساب من يقف بسبب الخوف من الشرطيّ والغرامة. من هنا، فإنّ للنية مكانة خاصة في العبادات، خصوصًا الصلاة، وما يجعل أيّ فعل عملًا عباديًّا هو النية أي قصد وجه الله به. فإذا لم تكن النية موجودة، فإنّ العمل، وإن كان ظاهره جيّدًا وصحيحًا؛ لكنّه يفقد قيمة العبادة. يقول الرسول الأكرم ﷺ: «**إنّما الأعمال بالنيّات**»[1]، لذلك فإنّ التفاوت المادّي أوالمعنوي لأيّ عمل هو في اختلاف النية والهدف.

النية الخالصة:

النية الخالصة هي أن يكون عمل الإنسان لله تعالى فقط، أي

(١) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢١٠.

خالصاً لوجهه سبحانه، وأن لا يكون في عمق روح الإنسان أيّ هدف سوى الله سبحانه ورضاه، فلا ينتظر أو يتوقّع من الناس أيّ شكر أو جزاء على عمله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[1].

إنّ أرغفة الخبز التي تصدّق بها أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، في تلك الليالي المتوالية، عند الإفطار، على اليتيم والأسير والفقير، لم تكن بتلك القيمة المادّية الكبيرة، لكنّها كانت خالصة لوجه الله تعالى؛ لذلك استحقّت أن ينزل فيها قرآن: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[2].

نقرأ في السيرة في صدر الإسلام: أنّه لما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى غزوة تبوك، قال: إنّ بالمدينة أقوامًا، ما قطعنا واديًا، ولا وطأنا موطنًا يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة، إلا وشاركونا في ذلك وهم في المدينة، قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وهم ليسوا معنا؟ فقال: حبسهم العذر، فشاركونا بحسن النية. وفي الخبر: أنّ رجلًا من المسلمين قُتل في سبيل الله بأيدي الكفار، وكان يُدعى بين المسلمين شهيد الحمار؛ لأنّه قاتل رجلًا من الكافرين بنية أن يأخذ حماره بعد قتله، فقُتِل على ذلك فأُضيف إلى نيته[3].

(١) سورة الإنسان: الآية ٩.
(٢) سورة الإنسان: الآية ٧.
(٣) الشيخ النراقي، جامع السعادات، ج٢، ص٩٠.

إنّ خلوص النية عمل دقيق وليس بالأمر الهيّن، فأحياناً توجد في أعماق نفس الإنسان أفكار «غير إلهية» قد ترسّخت في الأعماق، بحيث إنّ الإنسان نفسه لا يلتفت إليها، لذلك قيل إنّ الرياء والشرك الخفيّ أدقّ من دبيب نملة سوداء على صخرة سوداء في ظلمة ليل أسود. فهناك أشخاص- وما أكثرهم- يظنّون أنّهم يعملون بقصد القربة، لكن عند المنحدرات والمنزلقات يظهر أنّ قصد هؤلاء لم يكن خالصاً مئة بالمئة.

فالنية، بحسب تعبير العلّامة الشهيد مطهّري، تعني «معرفة الذّات» وقيمة العبادة بالمعرفة. نقرأ في رواية أنّ «نية المؤمن خير من عمله»[1]؛ لأنّ النية روح الأعمال، فكما أنّ الروح أفضل من الجسم، إذا ما قارنّا بينهما، وأنّ إنسانية الإنسان بروحه، كذلك في مقارنة العمل والنية، فإنّ النية أهمّ من العمل نفسه، لأنّها روح العمل. لذلك، فإنّ النية هامّة وقيّمة، إلى حدّ أنّ المولى تعالى يجزي الإنسان خيرًا ويعطيه الثواب إذا لم يستطع القيام بعمل الخير؛ لكنّه ملك نية العمل به، فلو استطاع لفعله، كما ورد في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ العبد المؤمن الفقير ليقول: يا رب ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البرّ ووجوه الخير، فإذا علم الله ذلك منه بصدق نية كتب الله له من الأجر مثل

(١) بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٢١٠.

ما يكتب له لو عمله، إنّ الله واسع كريم»[1]. وقد ورد عن رسول الله ﷺ: **«إنّ الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، وإنّما ينظر إلى القلوب لأنّها مظنّة النيّة»**[2].

قصد القربة:

قصد القربة يعني قصد القرب من المقام الربوبي. وليس خافيًا أنّه عندما يُقال فلان قريب من الشخصية الفلانية، أو المسؤول الفلاني، فهذا لا يعني أبدًا القرب المكاني أو الجسمي، وإلا فإنّ الخدم هم أقرب من الجميع! إنّما المقصود من القرب، هو القرب المعنويّ والمقاميّ وقرب الأنس. ثم إنّ القيام بالأعمال في سبيل مرضاة الله سبحانه وتعالى، ليس بمعنى أنّ الله عزّ وجلّ يتأثّر بأعمالنا، فيغيّر سلوكه وأسلوبه، وبذلك يُصبح محلًّا للحوادث، كما يقول علماء الكلام، ولا يعني ذلك تغييره القوانين والسنن، بل القرب ورضا الله تعالى هنا، بمعنى صعود روح الإنسان وارتقائها في سلم الوجود، بحيث تكون النتيجة النفوذ إلى الوجود، يعني القرب من منبع الوجود وإيجاده في قلبه، فكما أنّ مرّاتب الوجود متفاوتة بين الجماد والنبات والحيوان والإنسان، كذلك أيضاً مرّاتب الإنسان في القرب من منبع الوجود، فإنّها مختلفة؛ فالإنسان يستطيع أن يتقرّب

(١) وسائل الشيعة، ج١، ص٤٩.

(٢) جامع السعادات، ج ٣، ص ٨٩.

إلى الله تعالى ويُصبح مقرّبًا من أعتاب قدسه إلى حدٍّ يُصبح مع هذا القرب خليفة الله سبحانه في الأرض. لذلك، فإنّ العبادة مع قصد القربة تجعل الإنسان أكثر نورانية وكمالاً، وتمنحه سعة وجودية أكبر. إنّ جميع العبادات- خصوصاً الصلاة المستحبّة- لها دور هام في هذا الأمر، كما ورد في الحديث القدسي: «**لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه فإذا أحببته صظرت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها**»[1]؛ فالصلاة الواجبة قد تُقام خوفاً من النار والعذاب الإلهي، أمّا الصلاة المستحبّة (النافلة) فهي علامة العشق، ورمز الأنس بالمعبود الأزلي.

درجات القرب:

وردت كلمة «**درجات**» في القرآن مكرّرة في عدّة مواضع، وهي تدلّ على أنّ الدرجات المعنوية ليست محدودة، وقد جاءت في تعابير متعدّدة وفيها نقاط لطيفة. فمثلاً، يصف البعض بأنّ ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2]، وفي وصف لمجموعة أخرى يقول: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾[3]. مثلهم كمثل الأشخاص العظماء والكبار، فهم يعطون المكان مكانته وقيمته ويعلو المكان بهم ولا يعلون به، وبعبارة أخرى هذه الآية

(١) شفاء الصدور، ج ٢، ص ١٤٢، «فارسي».
(٢) سورة الأنفال: الآية ٤.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٣.

كأنّها تقول هم الدرجة وهم يجعلونها تسمو بهم، فهم الدرجة وليسوا أصحاب الدرجة. وقد ورد في سورة المعارج قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾[1]، أي صاحب السماء ومالك محل العروج الذي منه تعرج الملائكة؛ إذ إنّ الله سبحانه جعل للملائكة درجات مختلفة يتوجّهون بها إلى قربه بالتدريج؛ وهذا يُبيّن أنّ التصنيف في الدرجات المعنوية ليس خاصًّا بالإنسان وحده، بل الملائكة أيضًا ذوو درجات ولكلٍّ منهم محلّه الخاصّ للعروج. ويؤكّد هذا المعنى وصف القرآن جبرائيل عليه السلام بأنّه مطاع وأمين[2]، أي هو مطاع من الملائكة وهذا يعني أنّه أرفع منهم شأنًا. من هنا، فإنّ درجات البشر متفاوتة:

أحيانًا يكون الإنسان مطيعًا فقط، مثل عبد مطيع.

وأحيانًا لا يكون مطيعاً فحسب، بل ومحبًّا أيضًا، أي أنّه مطيعٌ بسبب العشق والمحبّة.

وفي حالات أخرى يكون المقام أعلى من الطاعة والمحبّة، عندها يصل إلى المعرفة الكاملة، وهنالك يرى الإنسان الله في كلّ شيءٍ ولا يغفل عنه عزّ وجلّ طرفة عين؛ وهذا حال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حيث يقول: **«ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه»**[3].

(١) سورة المعارج: الآية ٣.

(٢) سورة التكوير: الآية ٢١.

(٣) التبريزي الأنصاري، اللمعة البيضاء، ص ١٦٩.

طلب اللّه لذاته:

يُقال إنّ السلطان محمود الغزنوي أراد يومًا أن يمتحن حاشيته في القصر، ليختبر مدى وفائهم له، فسيّر قافلة، ووضع صندوقًا مليئًا بالمجوهرات على ظهر بعير، ولم يجعل للصندوق قفلًا، وعندما وصل البعير إلى مكانٍ منحدر أخافه السلطان فجفل وسقط الصندوق وتبعثرت محتوياته من الجواهر والحليّ الثمينة. فقال السلطان لمن حوله ولمرافقيه، كلّ من يلتقط شيئًا من المجوهرات فهي ملك له، عندها تركوا السلطان وحيدًا، وراحوا يجمعون ما استطاعوا من الذهب، إلا شخصٌ واحدٌ يُدعى «إياز» لم يلتفت إلى الذهب والجواهر، وتابع سيره خلف السلطان، فالتفت السلطان إليه وسأله: «لماذا لم تلحق بالمجوهرات فتجمع ما استطعت؟». فأجابه إياز شعراً:

أنا أسير خلفك وهدفي الخدمة وليس النعمة، فإذا كنت تتطلّع إلى إحسان الحبيب، فأنت في قيد نفسك وليس في قيده، إنّ الأولياء لا يتمنّون من اللّه سوى اللّه. القرآن الكريم يُشير إلى هذه الحالة من الطلب والعبادة، فيُخبر عن أولئك الذين يدعون اللّه في أوقات الحاجة وحالات الشدّة حيث لا معين لهم سواه عزّ وجلّ، فهؤلاء يطلبون اللّه من أجل أنفسهم، فإذا نالوا بغيتهم وما أرادوا انفتلوا ونسوا ربّهم الذي كانوا يدعونه ويتضرّعون إليه. يقول المولى تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ

إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾[1]. ويمكن تقسيم العبادات والأعمال من هذه الجهة إلى أقسام عدّة هي:

- العمل لأجل الذّات والنفس؛ وهذه عبادة للذّات.
- العمل لأجل الله تعالى والناس؛ وهذه عبادة مزدوجة وغير خالصة.
- العمل لأجله سبحانه؛ عبادة الله عزّ وجلّ.

ورد في المناجاة: **«إلهي ما عبدتك خوفًا من نارك ولا طمعًا في جنّتك بل وجدتك أهلًا للعبادة فعبدّتك»**[2]. إنّ الذين يبتغون المنفعة ويطمعون بالربح هم التجّار، ومن يعمل خوفًا من سيّده فهو عبد، لكنّ الأحرار وحدهم يعملون ويعبدون الله شكرًا له، لأنّه أهل للعبادة: **«فإنّ قومًا عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار، وإنّ قومًا عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإن قومًا عبدوا الله شكرًا فتلك عبادة الأحرار»**[3].

يقول حافظ الشيرازي الشاعر الإيرانيّ المعروف:

إلهي قلبي لا يتّسع لسواك، فحسبي أنّك محبوبي، وإذا كنت من أُحبّ فما همّني لو خاصمني العالمين.

ومن الشعر العربيّ، ما يُشبه هذا البيت في المعنى:

ليت الذي بيني وبينك عامر، وبيني وبين العالمين خراب.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٥.
(٢) بحار الأنوار، ج ٧، ص ١٨٦.
(٣) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ١٤.

خلاصة القول، إنّ الإنسان في العشق الماديّ يطلب معشوقه لنفسه، ومن أجل ذاته، لكن في العشق المعنويّ المقدّس، فإنّ الإنسان يُضحّي بنفسه لأجل المعشوق، كما في قول أمير المؤمنين علي عليه السلام في دعاء كميل: «**واجعل قلبي بحبّك متيّمًا**».

سبيل الوصول إلى مقام القرب:

الوصول إلى مقام القرب يكون من طريقين:

الأول: معرفة عظمة الله سبحانه ومقامه.

والثاني: معرفة أنّ كلّ ما سواه سراب وهباء. وإذا عدنا إلى القرآن، نجد أنّ الله تعالى يذكّر الإنسان دائمًا بالألطاف والنعم التي أنعمها عليه، لكي يُحبّ هذا الإنسان خالقه، فيُذكّره بالنِّعم ويصف له الصفات؛ الخلق، الإمداد والعون المادّي والمعنوي، وعشرات النعم العظيمة (صغيرة وكبيرة)، كلّ ذلك ليفتح قلوب الناس على حبّه.

من جهة أخرى، نجد آياتٍ كثيرة تصف ضعف الموجودات وعجزها، وأنّ ما من شيء إلا قائمٌ به سبحانه، فلا عزّة لغيره، ولا قدرة إلا قدرته، فلو اجتمع الخلق كلّهم ما استطاعوا خلق ذبابة. فمن يمكنه مساعدة المحتاجين والعاجزين والمضطّرين سوى الله عزّ وجلّ... فهل من المعقول أن نضع بعض المخلوقات إلى جانب خالق هذه المخلوقات، ونجعلها شبيهة أو ندًّا له تعالى عمّا يصفون؟!

خاطرة وعبرة:

يُنقل عن آية الله العظمى السيد البروجردي، وهو أحد مراجع التقليد، يُنقل أنّه كان يُقيم مجالس العزاء في منزله. في أحد المجالس لم تكن حالته الصحية جيّدة؛ لذلك اضطّر إلى الجلوس في غرفته الخاصّة من أجل الاستراحة، فكان يسمع قراءة مجلس العزاء من غرفته، خلال المجلس دعا أحد الحاضرين المشاركين إلى الصلاة على رسول الله ﷺ من أجل سلامة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف وسلامة السيد البروجردي. فما كان من السيّد البروجردي إلا أن غادر فراشه وعاتب المنادي على ذكر اسمه إلى جانب اسم صاحب الزمان، اعتقادًا منه أنّه لا يستحقّ ذكر اسمه إلى جانب اسم الإمام المهديّ[1].

من يرفض ذكر اسمه إلى جانب اسم إمامه هو المرجع الذي نعتقد أنّه نائب عن الإمام عجل الله فرجه الشريف، فما بالك بكثير من الناس الذين يذكرون أسماء المخلوقات إلى جانب اسم الخالق.

الكيفية، أم الكمية:

لا شكّ في أنّ الإسلام يهتمّ بكيفيّة العمل وهدفه والدافع لأجله، والقرآن الكريم يتحدّث عن العمل الأفضل والأحسن، ويُثني عليه،

(١) نقلا عن آية الله الصافي.

قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

تكشف لنا سيرة أئمة الهدى عليهم السلام، عن أنّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام يتصدّق بخاتمه أثناء الركوع لفقير، وقد خلّد الله هذا الإحسان بذكره في كتابه، وربّما يصوّر بعض الناس أنّ قيمة هذه الصدقة نابعة من قيمة الخاتم الذي يظنّ بعضٌ أنّها تساوي خراج بلاد الشام. وقد صوّره الشاعر الإيراني بأنّه خاتمٌ ملكيٌّ، فقال:

أيّها المتسول المسكين اذهب إلى باب عليّ، واطرقه، فقد أعطى المتسوّل من كرمه خاتمًا ملكيًّا.

في حين أنّ هذا الخاتم، بهذه القيمة التي وصفوها، لا يتوافق مع زهد عليّ عليه السلام، ولا مع عدله عليه السلام، فكيف يمكن أن يضع مثل هذا الخاتم بيده، وبين الناس من يُعاني آلام الجوع والفقر؟ ويبدو لنا أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[2]، نزل ليخلّد هذا الإحسان بناء على كيفيّته وليس استنادًا إلى كمّيته، فليس وزن الخاتم ولا نوع معدنه أو الحجر الكريم الذي يُزيّنه هو المهمّ، بل المهمّ هو الروح التي صدر عنها هذا الفعل.

(١) سورة هود: الآية ٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٥.

يُقال إنّ «بهلول» رأى جماعة يبنون مسجدًا، ويدّعون أنّه لله تعالى، فعمد إلى حجرٍ وكتب عليه اسمه ليتوهّم الناس أنّه هو من يبني هذا المسجد. وفي اليوم التالي جاء العمّال فوجدوا الحجر وما كُتب عليه، فأخبروا هارون الرشيد بذلك، فاستدعاه هارون الرشيد وسأله عن فعلته. قال بهلول: «**أيُّها الخليفة! إن أنت بنيت هذا المسجد لله، فدع اسمي عليه، فإنّ الله تعالى يعلم من الذي بنى وعمّر المسجد، وهو لن يُخطئ في الجزاء، بل سيمنحه لبانيه وليس لمن وضع اسمه عليه، فإن كان المسجد لله سبحانه، فلا فرق إن كان اسمك عليه أو اسمي. لقد أفهمه بهلول أنّ عمله هذا لم يكن بقصد القربة إلى الله عزّ وجلّ، بل كان للشهرة والسمعة فحسب. لهذا السبب ولأجل اهتمام الإسلام بالكيف أكثر من الكمّ، يُشبّه القرآن الكريم أعمال الكفار بالسراب، الذي يحسبه الظمآن المسافر في الصحراء ماء، لكنّه في الواقع لا شيء:** ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ...﴾[1].

شمولية الإسلام وجامعيّته:

الإسلام يعدّ العمل صالحًا عندما يشتمل هذا العمل على عناصر عدّة ينضمّ بعضها إلى بعضها الآخر. وأهمّ هذه العناصر: حسن

(١) سورة النور: الآية ٣٩.

العمل، وحسن الدافع، وحسن الوسيلة، وحسن الأسلوب. فإذا فُقِد عنصرٌ واحدٌ من هذه العناصر الأربعة لم يكن العمل صالحًا، وفُقد هذا العمل قيمته؛ لأنّ قصد القربة ليس فقط ضروريًّا في بداية العمل وحسب، بل يجب أن يُرافق قصد القربة العمل على طول خطّ إنجازه، أي منذ البداية حتى النهاية وعلى الدوام، وإلا فإنّ العمل كلّه باطل. فمحرّك الطائرة عندما يتوقّف تهوي الطائرة، والأمر كذلك في العبادات فإذا طرأ الشرك ودخل على العمل حتّى للحظة واحدة فقد العمل قيمته وتحوّل إلى وبالٍ على صاحبه.

من الذاكرة:

أذكر أنّي كنت مسافرًا في الطائرة، فطُلِب من الركّاب النزول من الطائرة ومغادرتها لإجراء بعض الأعمال فيها قبل إقلاعها، فسألت يومها عن السبب، فقيل لي إنّهم وجدوا في الطائرة صرصورًا، فتعجّبتُ من الأمر وسألت مجدّدًا هل يستدعي وجود مثل هذه الحشرة الصغيرة كلّ هذا الاستنفار؟ فأخبروني أنّ هذه الحشرة الصغيرة قد تقرض سلكًا أو شيئًا حسّاسًا فتُعطّل جهازًا من أجهزة الطائرة، فتتعرّض سلامة المسافرين للخطر. وكثيرًا ما يحدث أنّ الإنسان يكون في مسيرة العروج إلى الله تعالى، فتختلّ سلامة رحلته بسبب دخول حشرات الشرك والرياء إلى أعماله، فتتحوّل الرحلة بدل العروج إلى الهبوط، ويتحوّل التحليق إلى سير نزوليّ.

النية وقيمة العمل:

لنفترض أنّ شخصًا قتل إنسانًا ظلمًا وتعدّيًا، ثمّ في ما بعد تبيّن أنّ المقتول إنسان ظالم ومجرمٌ أيضًا، ويستحقّ الإعدام، في هذه الحالة، صحيحٌ أنّ القاتل أراح الناس من ظلم هذا الظالم؛ لكن لمّا كان يقصد من الأوّل قتل إنسانٍ بريء فهو لا يستحقّ المدح والثناء على فعله، والسبب هو النيّة السيّئة التي كانت مقارنةً للعمل منذ بدايته. إذًا، لا يكفي أن يكون العمل مفيدًا ليكون عملًا صالحًا، بل يجب أن يترافق مع الدافع الخالص والسليم، لذلك، نرى أنّ القرآن الكريم يُحدّثنا في جميع المواضع عن قصد القربة، فالأعمال تعتمد على ذلك؛ في الخمس والزكاة والإنفاق، وفي مجاهدة الكفار أيضًا، من ذلك عبارات ترد في القرآن الكريم كقوله تعالى: «**في سبيل الله**»، «**لوجه الله**»، «**ابتغاء مرضاة الله**»[1]، هذا الاعتماد يشير إلى أهمية قصد القربة.

ثمّة عددٌ كبيرٌ من الناس يؤدّون بعض الأعمال التي ظاهرها أنّها أعمال خيّرة، مثل بناء المدارس والمستشفيات، وشقّ الطرقات وغير ذلك من الأعمال التي يترتّب عليها منافع للناس؛ ولكن هذه الأعمال إذا لم تكن بقصد التقرّب إلى الله فهي في الحقيقة ظلمٌ منهم لأنفسهم، وهم بهذه الأعمال ينفعون الناس ولكن لا ينفعون

(١) على التوالي، سورة البقرة: الآية ٩٠، سورة البقرة: الآية ٢٠٧، سورة الإنسان: الآية ٩.

أنفسهم، إن لم نقل إنّهم يضرّون أنفسهم بتركهم النيّة الحسنة والقصد الخيّر. ومن هنا نجد القرآن يجمع كثيرًا بين الإيمان والعمل الصالح، ومن ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1]، وقوله في موضع آخر: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[2]، وهذا المعنى والمعنى السابق يتكرّر مرّات عدّة في القرآن الكريم ليؤكّد أنّ «**حسن الفعل**» لا يشفع وحده لفاعله؛ بل لا بدّ من أن يكون الفاعل نفسه حسنًا. وتعبير الحسن الفعلي والحسن الفاعلي يذكران في بعض النقاشات في علم أصول الفقه في مجال قريب ممّا نحن فيه.

ورد في الخبر أنّ بلالًا الحبشيّ (مؤذّن الرسول ﷺ كان يلثغ، فينطق الشين في «**أشهد...**» سينًا، فعابه الناس على ذلك؛ لكنّ رسول الله ﷺ قال: «**سين بلال شين عند الله**»[3]. صحيح أنّ نطقه كان في الظاهر ناقصًا؛ لكن عمله كان بقصد القرب وحسن النيّة فجزاه الله خير الجزاء. ويُذكر أنّ عبد الله بن مكتوم وهو صحابيّ جليلٌ، كان ضريرًا لا يُبصر، دخل يومًا على رسول الله ﷺ، والرسول يُكلِّم بعض الناس، وفيهم رجلٌ من بني أمية، فلمّا رآه الرجل تقذّر منه وجمع نفسه وعبس، وأعرض بوجهه عنه، فأنكر

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧٧.

(٢) سورة غافر: الآية ٤٠.

(٣) آقا رضا الهمداني، مصباح الفقيه، ج ٢، ص ٢٧٨.

الله تعالى ذلك عليه، نعم بالنسبة إلى شخص ضرير فإنّ العبوس أو التبسُّم سواء، فهو لا يرى، غير أنّ القرآن الكريم أنزل في ذلك سورة، وتحدث في عشر آيات عن ذلك الشخص العبوس إذ أنكر عليه فعلته: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾[1].

وبناء على ما تقدّم يتبيّن أنّ المعيار في تقويم العمل ليس هو المنفعة أو الضرر فقط، بل معيار القيمة الأساس للعمل هو النيّة التي كانت وراءه إلى جانب ما يترتّب عليه من منفعة وآثار حسنة لخلق الله.

فالأخلاق في مدرسة الأنبياء لها قيمة ذاتيّة، وليست وسيلة لجذب الناس واستمالة قلوبهم، كما هي في حسابات التجّار الذين يُحسّنون أخلاقهم ويحسنون معاملة المشترين لجذب قلوبهم ودفعهم إلى إنفاق أموالهم بين يدي هذا التاجر الذي يتظاهر بحسن الأخلاق من أجل ما فيها من منفعة اقتصاديّة له. من هنا نجد أنّ الله عزّ وجلّ ذمّ العبوس في وجه الأعمى على الرغم من أنّه لا يتأثّر به؛ وإنّما ذمّه لأنّ العبوس في مقياس الأخلاق الدِّينيّة أمر قبيح بغضّ النظر عن الآثار التي تترتّب عليه.

(١) سورة عبس: الآيات ١-١٠.

نعم إنّ قصد القربة يعني أن يكون العمل خالصًا لله تعالى، ولوجهه سبحانه، من غير خوف من القيل والقال، فالله تعالى يصف المؤمنين بقوله: ﴿... يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ ...﴾[1]. فقصد القربة يعني أن تفعل الخير وتقول الحقّ ولا تخاف أحدًا سوى الله تعالى، عندها يكون الإنسان مصداقًا لقوله تعالى في وصف الدعاة إليه ومبلّغي رسالاته: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[2].

من الذاكرة:

في أحد الأيام، كنت مشغولاً بالدعاء والزيارة في حرم الإمام الرضا عليه السلام، كان رجل زائرٌ يجلس بجانبي، وقد عرفني من برنامجي التلفزيوني ليلة الجمعة، فجأة أخذ بعض النقود وقال لي: سيّد قراءتي خذ هذه النقود وأعطها لفقير. قلت له أنا زائر مثلك ولا أعرف الفقراء في مدينة مشهد، افعل أنت ذلك بنفسك وأعطها لفقير. مرّت لحظات ثم كرّر عليّ طلبه، وطلب إليّ أن آخذ المال وأُعطيه لفقير، فكان جوابي مثل المرّة الأولى، ثم تابعت الدعاء والزيارة. في المرّة الثالثة كرّر كلامه، فشعرت بالغضب، وقلت له، أنت اليوم تُشتّت أفكاري ثلاث مرّات من أجل «عشرين تومان» لو تفضّلت عليّ لا تزعجني أكثر، وأما المال فأنت أعطه لفقير بنفسك،

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٩.

عندها قال لي يا سيد قراءتي إنها ليست ٢٠ تومان بل ١٠٠٠ تومان. سكتت لحظات وهدأ غضبي، فقلت له توجد مؤسّسة تُعنى بالأولاد الأيتام، فقال لي:» الأمر إليك، افعل ما تراه مناسباً«، ثم ناولني المال وانصرف. بعد ذلك وضعت كتاب الدعاء جانبًا، وغرقت في التفكير، فقلت في نفسي: إن كان المال لوجه الله تعالى فما الفرق بين (٢٠ تومان وألف تومان)؟ لقد أدركت آنذاك أن ذلك المشهد كان امتحانًا لي، لكي أعلم أنّ مفهوم قصد القربة حتّى تلك اللحظة لم يصل إلى المستوى المطلوب من الوضوح في نفسي.

من علامات الإخلاص أن لا يُفرِّق الإنسان بين الكمية، والأشخاص، والمناطق، ونوع العمل، والظروف، بل يكون جلّ اهتمامه وفكره في سبيل رضا الله تعالى، سواء فهم الناس أم لم يفهموا، أحبّوا أم كرهوا. طبعًا، المحبّة والعمل من أجل الناس أفضل من الأنانية وحبّ الذّات، لكن ليس لذلك قيمة إلهية من دون هدف إلهي، وعلى حدّ تعبير العلّامة الشهيد مرتضى مطهّري: **«قصد القربة هو شرط ذاتيّ وليس اعتباريًّا ولا عقديًّا، هو شرط تكويني وليس تشريفيًّا. فإذا قلنا إنّ شرط الوصول إلى مكة هو قطع المسافة المؤدّية إلى مكة، فهذا شرط طبيعيّ وذاتيّ، وليس أمرًا اعتباريًّا مبنيًّا على التراضي والتوافق بين الناس. وقصد القربة هو الشرط التكوينيّ الطبيعيّ للوصول إلى مقام القرب، وليس شرطًا اعتباريًّا خاضعًا للتراضي والاعتبار.**

آثار النية وبركاتها:

إذا نظرنا إلى الآيات المباركة والأحاديث الشريفة نظرة سريعة وعابرة، نجد أن للنية آثاراً وبركات جمّة. نُبيّن بعضاً منها وبصورة مختصرة:

حسن النية يزيد من الرزق: «ومن حسنت نيّته زاد الله في رزقه»[١]. ولعلّ حسن النية يجعل من سلوك الشخص مع الآخرين سلوكًا طيّبًا، فينجذب الناس إليه، ويكثر محبّوه، ويزيد عمله وخيره ورزقه.

حسن النية يزيد من التوفيق والعيش الطيّب، ويكسب الأصدقاء: في الحديث: «من حسنت نيته كثرت مثوبته وطابت عيشته ووجبت مودّته»[٢]. فالألطاف الإلهية تشمل الإنسان بقدر حسن نيته، وكلّما زادت النية الحسنة لدى الإنسان ازداد اللطف الإلهي به.

حسن النية يزيد من عمر الإنسان: فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من حسنت نيته زيد في عمره»[٣]. وقد ورد في الحديث أنّ المرء ليبلغ كلّ ما يريد بحسن النية. عن أبي عبد الله عليه السلام: «من رجع من مكة وهو ينوي الحج من قابل زيد في عمره»[٤].

(١) وسائل الشيعة، ج١، ص ٣٧.
(٢) عيون الحكم والمواعظ،، ص ٤٦٥.
(٣) ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٢١١٦.
(٤) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ١٠٧.

حسن النية يجبر ما فات: فقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه «من تاب من معصية بحسن نية بدّل الله ذنبه حسنة وجعل له من أمره يسراً وأصلح حاله»[1]. وورد عنه عليه السلام: «لو أنّ الناس حين تنزل بهم النقم وتزول منهم النعم، فزعوا إلى ربّهم بصدق من نياتهم ووله من قلوبهم، لردّ عليهم كلّ شارد، وأصلح لهم كلّ فار»[2].

الجزاء على النيّة حتّى لو لم يصدر الفعل: فأجر الأفعال الطيّبة يحسب في ميزان الإنسان إذا كانت نيّته صادقة وإن لم ينجز العمل الذي نوى فعله. فعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ العبد المؤمن الفقير ليقول: يا ربّ ارزقني حتّى أفعل كذا وكذا من البرّ ووجوه الخير. فإذا علم الله ذلك منه بصدق نيّة كتب الله له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله، إنّ الله واسع كريم»[3]. وكذلك ورد أنّ من تمنّى الشهادة صادقًا أعطاه الله ثواب الشهداء واحتسبه منهم ولو مات على فراشه[4].

ومن اللطف الإلهي ما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من همّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشرًا، ويضاعف الله لمن يشاء إلى سبعمئة، ومن همّ بسيّئةٍ فلم يعملها

(١) انظر: نهج البلاغة، الخطبة ١٧٨.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٨.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٦.
(٤) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٠١.

لم تُكتب عليه حتّى يعملها، فإن لم يعملها كُتِبت له حسنة، وإن عملها أُجِّل تسع ساعات، فإن تاب وندم عليها لم تُكتَب عليه، وإن لم يتب ولم يندم عليها كُتِبت عليه سيئة»[١].

صفاء النيّة يحوّل الأعمال العاديّة إلى أعمال مقدّسة: النية الصادقة والحسنة تجعل من أكثر الأمور المادّية في الحياة سببًا للقرب من الله سبحانه. في المقابل فإنّ أكثر الحالات المعنوية مثل السجود والبكاء، قد تُصبح سببًا للبعد عن الله عزّ وجلّ إذا خالطها الرياء والتظاهر. ورد في الروايات عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**كما لا يقوم الجسد إلا بالنفس الحيّة، فكذلك لا يقوم الدِّين إلا بالنية الصادقة**»[٢]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم؛ لأنّ سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله في الأمور كلّها**»[٣]. كما وردت روايات متعدّدة تؤكّد أنّ الله تعالى يُحاسب الناس يوم القيامة على نواياهم. وفي بعض الأخبار أنّ صدق النيّة والإخلاص يشدّ عزم الإنسان ويقوّي بدنه على فعل الطاعة، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ما ضُعف بدنٌ عمّا قويت عليه النية**»[٤].

(١) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٠.
(٢) ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول، ص ٣٩٦.
(٣) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢١٠.
(٤) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٨.

إنّ الله تعالى يُدخل بحسن النية وصالح السريرة من يشاء من عباده الجنة[1]. يقول المولى تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[2]، لذلك، فإنّ من كان هدفه أداء الواجب والعمل بالتكليف لا يهمّه نوع العمل، ولا النتيجة، التكليف والعمل به هو المهم، المهمّ هو الجهاد في سبيل الله، أما النتيجة، سواء كانت النصر أم الهزيمة، فليس لها أيّ تأثير في الجزاء الإلهي. يقول المولى تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[3]، ويُفهم من هذه الآية المباركة أنّ من يخرج من بيته في سبيل الله تعالى فقد وقع له الأجر، وإن لم يصل إلى مقصده، فالمهمّ هو النية والدافع نحو العمل وليس العمل نفسه، المهم الخروج والسير في سبيل الله، وليس الوصول إلى المقصد. يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذرّ الغفاري (رضوان الله عليه) عليه في وصيّته له: **«يا أبا ذرّ همّ بالحسنة وإن لم تعملها، لكي لا تُكتب من الغافلين»**[4]. في حديث آخر عن إمامنا الرضا عليه السلام: **«تصدّق بالشيء وإن قلّ، فإنّ كلّ شيء يُراد به الله وإن قلّ بعد أن تصدق**

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص ١٤٣.
(٢) سورة النساء: الآية ٧٤.
(٣) سورة النساء: الآية ١٠٠.
(٤) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٠.

النية فيه عظيم»[1]. كما وأنّه قد تكون الأعمال هامّة وعظيمة؛ ولكنّها تفقد قيمتها عندما تفقد النية الصحيحة والحسنة، حتى أنّ القتل في جبهات القتال قد لا يُكتب عند الله تعالى شهادة، وقصة **«شهيد الحمار»** معروفة في تاريخ المسلمين، وقد أشرنا إليها قبل قليل. ورد في الحديث عن رسولنا الأكرم ﷺ أنّ أكثر شهداء أمّتي يذهبون من الدنيا من على فراشهم، وكثير ممّن يقتلون في الحرب، فإنّ الله تعالى أخبر بنواياهم[2]. قال رسول الله ﷺ: **«إنّما الأعمال بالنيّات، ولكلّ امرء ما نوى، فمن غزا ابتغاء ما عند الله فقد وقع أجره على الله عزّ وجلّ، ومن غزا يريد عرض الدنيا أو نوى عقالاً لم يكن له إلا ما نوى»**[3].

عندما خرج النبيّ الأكرم ﷺ في غزوة تبوك، كان بعض المسلمين يريدون الخروج معه لكنّهم لم يتمكّنوا من ذلك، فوقع أجرهم على الله تعالى (كما ورد في رواية سابقة). فمن كان يريد الخروج ولم يستطع فقد شارك بالأجر بسبب، والسبب النية. قال أحدهم لأبي عبد الله عليه السلام: **«إنّي سمعتك تقول: نية المؤمن خير من عمله، فكيف تكون النية خيرًا من العمل؟ قال: لأنّ العمل ربّما كان رياء للمخلوقين، والنية خالصة لربّ العالمين**

(١) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٨٧

(٢) انظر: المحجة البيضاء، ج ٨، ص ١٠٣.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٥.

فيعطي عزّ وجلّ على النية ما لا يُعطي على العمل»[1]. وقال أبو عبد الله عليه السلام: **«إنّ العبد لينوي من نهاره أن يُصلّي بالليل فتغلبه عينه فينام، فيثبت الله له صلاته، ويكتب نفسه تسبيحًا، ويجعل نومه عليه صدقة»**[2].

ليس غريبًا أن نرى الإسلام يوصي بأن تكون جميع أعمال الإنسان مقدّسة، صادرة عن نيّة سليمة وحسنة، وأن تكون حياتنا كلّها لله تعالى. ورد عن أبي ذرّ الغفاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«يا أبا ذر ليكن لك في كلّ شيء نية حتى في النوم والأكل»**[3]. إنّ الإنسان إذا أحبّ شخصًا في الله وظنّ أنّه من أهل الخير فهو مأجور، حتى ولو كان الشخص الذي أحبّه من أهل النار كما ورد في الأحاديث والروايات[4].

تقدّم النيّة على العمل:

تتقدّم نية العمل على العمل نفسه أحيانًا؛ لأنّ العمل قد يُصاحبه الرياء أو العجب في بعض الحالات، أمّا النية فلا يدخل فيها الرياء والسمعة وأمثال ذلك؛ لأنّها أمر باطنيٌّ وليس لها آثار ظاهريّة؛ والأمر الآخر الذي تمتاز به النيّة على العمل أنّها ممكنة في كلّ زمانٍ

(١) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٨.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٤.
(٤) انظر: المحجة البيضاء، ج ٤، ص ٣٧٤.

ومكانٍ ولا تتطلّب شروطًا خاصّة، لكن أداء العمل بحاجة إلى شروط وإمكانات كثيرة. وقد ورد في الأخبار عن النبيّ ﷺ مجموعة من الروايات تُعرف بروايات: «من بلغه»؛ حيث نجد فيها أنّ شخصًا إذا سمع رواية تقول إنّ للعمل الفلاني الجزاء الفلاني، فقام بذاك العمل طلبًا للثواب الموعود به في الخبر، فإنّ الله تعالى يُعطيه نفس ذلك الجزاء، حتى وإن كانت الرواية غير صحيحة؛ لأنّ الشخص الذي عمل بهذا الحديث قام به بقصد الرجاء وحسن نية.

مرّاتب النية:

المرتبة الأولى: أحيانًا يكون الخوف من غضب الله تعالى أو الطمع بلطفه هو الدافع للإنسان لكي يقوم بالفعل، كما يقول الله تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[1]، ويقول عزّ وجلّ أيضًا: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[2].

المرتبة الثانية: وهذه المرتبة أعلى من سابقتها إذ يكون الدافع في هذه الحالة هو أداء حقّ الشكر لله تعالى على ألطافه ونعمه؛ فيُقدم الإنسان على العبادة أو العمل حتّى لو لم يكن ثمّة وعد بالثواب ولا وعيد بالعقاب. يقول أمير الموحّدين عليّ عليه السلام: **«لو لم يتوعّد الله على معصيته لكان يجب ألّا يُعصى شكرًا لنعمته»**[3].

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٦.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.
(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٢٩٠.

المرتبة الثالثة: وهي أرقى درجة من سابقتيها. وفي هذه المرتبة يؤدّي العبد ما يراه مطلوبًا منه بدافع الحياء من الله عزّ وجلّ والشعور بهيبته. وينسجم مع هذه المرتبة من النيّة ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«اعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»**[1].

المرتبة الرابعة: وفي هذه المرتبة يؤدّي العبد ما عليه بدافع القرب من الله وبدافع الإحساس بأنّ الله تعالى أهلٌ للعبادة ومستحقٌّ لها، فلا يلتفت العبد إلى الجنّة ولا يطمع بالحصول عليها، ولا ينظر إلى النار ولا يخشى التورّط فيها. وقد ورد عن الإمام عليّ عليه السلام في وصف هذه المرتبة قوله: **«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتّك أهلاً للعبادة فعبدّتك»**[2].

المرتبة الخامسة: ولعلّها المرتبة الأرقى بين هذه المرّاتب، ويصل الإنسان فيها إلى حالة يشعر بأنّه عاشق لله ومحبٌّ له. ومن النماذج التي يمكن أن تُذكر كأمثلة لهذه المرتبة ما فعله الإمام الحسين عليه السلام حيث قدّم نفسه وأهله في سبيل الله تعالى؛ إذ رأى الموت بمثابة القلادة على صدر العروس، كما في قوله عليه السلام: **«خُطّ الموت على ولد ابن آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة.»**[3]

(١) رسائل الشهيد الثاني، ط ق، ص ١٧.
(٢) بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٨٦.
(٣) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، ص ٣٩٧.

ومثله في هذا المقام ما يُنقل عن أبيه إمام المتّقين عليّ عليه السلام فقد كان يأنس بالموت كما يأنس الطفل بثدي أمّه وأكثر: «**والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه...**»[1]. وهذه هي سيرة أولياء الله تعالى، فهذه عبارة القاسم بن الحسن المجتبى عليه السلام في كربلاء ما زالت تُدوّي في الخافقين، حين سأله عمّه الإمام الحسين عليه السلام قال له يا بنيّ كيف الموت عندك؟ فقال: يا عم فيك أحلى من العسل[2].

دور النية في الثواب والعقاب:

اهتمّ الإسلام بالمسائل القانونيّة والجزائيّة، ففتح للقصد والنية حسابًا منفصلاً، حيث نُشير إلى ذلك بنماذج: في مسألة القتل نجد أنّ الإسلام أعدّ لمن يقتل شخصًا عمدًا حسابًا يختلف عن حساب من يقتل بغير عمد ولا قصد، فلكلٍّ من القاتلَين حساب وحكم مختلف: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[3]. أمّا في مسألة القسم فالقرآن الكريم يقول: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

(١) المصدر نفسه، ص ٣٧١.
(٢) ليلة عاشوراء في الحديث والأدب، ص ١٦٩.
(٣) سورة النساء: الآية ٩٣.

حَلِيمٌ ﴾[1]؛ لذلك إذا أقسم شخص من دون نية أو قصد جدّي فلا قيمة لقسمه.

المعرفة مقدّمة قصد القربة:

المعرفة هي الطريق الأهمّ للوصول إلى قصد القربة والنيّة السليمة الحسنة، فنحن يُمكننا أن نُعدّ أنفسنا للعمل الصالح والخالص مع قصد القربة:

عندما نعلم أنّ القلوب بيد الله تعالى ومحبّة الناس كالرزق لا يحصل عليه الإنسان في كثير من الأحيان بالجهد والتعب. يقول الله عزّ وجلّ على لسان إبراهيم فيقول: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾[2].

عندما نعلم أنّ النفع والضرّ ليس خاضعًا بالكامل لإرادة البشر[3].

عندما نعلم أنّ العمل لله تعالى يتبعه أجرٌ مضاعف عند الله تعالى، عشرات وعشرات المرّات، لذلك من الظلم أن نعمل لغيره.

عندما نعلم أنّ الترقّي والصعود في المقامات الاجتماعية ليس

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٥.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

(٣) انظر: المناجاة الشعبانية.

دليلًا على العظمة الواقعيّة؛ فالدخان الأسود يصعد إلى أعلى الجوّ أيضًا.

عندما نعلم أنّ اهتمام الناس ونظرهم إلينا ليس له قيمة حقيقية، فكثيرة هي الأمور غير المحترمة التي تلفت نظر الناس أيضًا. فالفيل لو سار في الطريق لما بقي إنسان إلا ونظر إليه، فهل يدلّ هذا الاهتمام على احترام الناس له؟

عندما نعلم خطر الرياء وأنّه سيتحوّل يومًا ما إلى فضيحة وخزي، يومذاك عندما تكشف السرائر، يُفتقد القلب السليم وتُعلم أهميّة صدق النية: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

عندما نعلم أنّ العزّة والقوّة لله جميعًا ومفاتيحها في قبضته: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾[2].

وأخيرًا عندما نعلم ما هي الخسائر التي سنُمنى بها في حال فساد نوايانا.

آثار النية الفاسدة:

في ختام الحديث عن النيّة تجدر الإشارة إلى آفات النيّة الفاسدة وآثارها السلبيّة.

(١) سورة الشعراء: الآيتان ٨٨- ٨٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

- سوء النية داء دفين، وله آثار سلبية كثيرة، منها أن ترتفع البركة وتنزل البلية[١]. ورد عن الإمام السجاد عليه السلام أنّ النية السيّئة سبب لعدم قبول الدعاء، وإنّ المؤمن لينوي الذنب فيحرم رزقه[٢].
- النية السيّئة لا تسقط الأعمال والعبادات من كونها إلهية، وتخرجها من الصبغة الإلهية فحسب، بل إنّ سوء النية يستتبع أخطارًا وآثارًا سيّئة جدًّا، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«من استدان دينًا فلم ينوِ قضاءه كان بمنزلة السارق»**[٣]. كذلك في المهر، فقد ورد في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«من تزوّج امرأة ولا يجعل في نفسه أن يُعطيها مهرها فهو زنا»**[٤]، وفي حديث آخر: **«كان بمنزلة السارق»**[٥].
- الحرمان من الرزق: كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: **«إنّ المؤمن لينوي الذنب فيحرم رزقه»**[٦]، ونموذج ذلك قصّة أصحاب البستان المذكورين في القرآن الكريم في سورة القلم من الآية ١٦ إلى الآية ٣٠، اذ يقول تعالى: ﴿إِنَّا

(١) انظر: ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٣٤٢٠.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٤٢.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣٢٨.
(٤) الوسائل، ج ١٥، ص ٢٢.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه.

بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾. وهم إخوة كان أبوهم يملك بستانًا قرب صنعاء اليمن، فكان يأخذ منها قوت سنته ويتصدّق بالباقي، وكان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل وما في أسفل الأكداس وما أخطأه القطاف من العنب وما بعد من البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صُرمت (قُطفت ثمارها)، فكان يجتمع لهم شيء كثيرٌ. فلمّا مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر، ونحن أولو عيال، فحلفوا أن يقطفوا بستانهم عند الصباح قبل أن يستيقظ المساكين، ولم يقولوا إن شاء الله. فأرسل الله نارًا إلى بستانهم فأحرقته وهم نيام قبل أن يطلع عليهم الصباح. فلمّا استيقظوا وذهبوا إلى بستانهم وجدوه هشيمًا كالصريم أي أسود كالليل المظلم. عندها أفاقوا في سبات الغفلة وأدركوا بأنّ الحرمان والنقص هو منع حقّ الفقراء. وليس أداء حقوقهم. ويفهم من هذه القصة الواردة في القرآن أنّ الله تعالى يجزي الناس في كثيرٍ من الأحيان على أساس القصد والنية.

- فساد النيّة مؤشّر دالٌّ على الشقاء، كما في تعبير أمير المؤمنين عليه السلام: «**من الشقاء فساد النية**»[1].

(١) ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٣٤٢٠.

- فساد النية سببٌ لقلّة البركة ونقص العمر. وقد ورد هذا المعنى في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها: «**عند فساد النية ترتفع البركة**»[1]، وفي رواية أخرى، يقول: «**من أساء النية منع الأمنية**»[2].

قصة وعبرة:

يُحكى أنّه قيل لشخص لك عند الله تعالى ثلاث دعوات مستجابة بسبب عمل خير عملته، ففرح الرجل لذلك وراح يُفكّر بماذا سيدعو ربّه عزّ وجلّ، فدعا في الدعاء الأوّل أن تصير زوجته أجمل امرأة على وجه الأرض، فاستجاب الله له، لكن حياته تحوّلت إلى شقاء وعذاب لا يُطاق؛ لأنّها صارت محلًّا لعيون المتطفّلين الذين لا يتركون النظر إليها لجمالها. فدعا في الثانية أن تكون أقبح امرأة على وجه الأرض، فاستُجيبت دعوته؛ ولكنّه لم يستطع تحمّل الحياة مع امرأة قبيحة الوجه. وفي المرّة الثالثة دعا ربّه أن يُعيدها إلى ما كانت عليه سابقًا، فعادت كما كانت، وبذلك استخدم الرجل ثلاث دعوات ولم يستفد من أيٍّ منها، ولم يصل إلى أيّ نتيجة، وهذا هو معنى أن تُسلب البركة من الإنسان فيخسر النعم التي أنعمها الله عليه دون أن يستثمرها بالشكل المطلوب.

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

تكبيرة الإحرام

اللّه أكبر:

أول كلام يجب على حجّاج بيت الله الحرام افتتاح مناسك الحج به هو قولهم «لبّيك اللهم لبّيك»، وبذاك يدخلون في دائرة الحج، فتحرم عليهم مجموعة من الأمور التي كانت محلّلة قبل التلبية، وهذا ما يُسمّى بالإحرام في الحجّ. والصلاة تبدأ كذلك بكلمة «الله أكبر»؛ وبها يدخل المصلّي في صلاته، فيحرم عليه كلّ ما يبطل الصلاة ممّا كان جائزًا قبل الصلاة، كالشرب والأكل والكلام، ويطلق على هذه التكبيرة (التكبيرة الأولى) تكبيرة الإحرام.

يُكرّر حجاج بيت الله الحرام عبارة «لبّيك اللهم لبّيك» أثناء مسيرهم باتجاه الحرم، عند كلّ وادٍ وجبلٍ ومنحدرٍ ومرتفعٍ، وهذا التكرار من الأمور المستحبّة، والمصلّي أيضاً يُستحبّ له أن يُكرّر عبارة «الله أكبر» عند القعود والقيام، وفي الوقوف والانحناء.

اللّه أكبر

- أوّل كلمة واجبة نفتتح بها نهارنا عند صلاة الصبح.
- أوّل كلمة يسمعها المولود الذي يأتي إلى هذه الدنيا في الأذان

والإقامة (يستحب الأذان في أذن المولود اليمنى والإقامة في أذنه اليسرى)، وآخر كلمة يسمعها الإنسان عندما يتوفّاه الله تعالى (في صلاة الميت) ثمّ يُدفن في قبره.

- الذكر الأوّل والأهمّ في الصلاة بين الأذكار الواجبة، ويُعدّ ركنًا من أركان الصلاة.

- الجملة الأولى في نشيد المسلمين في (الأذان).

الله أكبر أكثر ذكر يُقال في مقدّمات الصلاة، وأثناءها، وفي التعقيبات، بحيث إنّ المسلم ينطق هذه العبارة في الصلوات الخمس الواجبة فقط (وليس المستحبّة) ما يقارب ٣٦٠ مرّة يُكرّرها في صلواته، وهي على الشكل التالي:

(٣٠) مرّة في الأذان، الأذان خمس مرّات في اليوم وفي كلّ أذان يذكر (الله أكبر) ٦ مرّات.

(٢٠ مرّة) في الإقامة، الإقامة خمس مرّات في كلّ مرّة يذكر (الله أكبر) ٤ مرّات.

يُستحبّ قبل البدء بالصلاة التكبير ٦ مرّات، والتكبيرة السابعة تكون تكبيرة الإحرام، فيكون المجموع في الصلوات الخمس (٣٠ مرّة) ما عدا تكبيرة الإحرام.

تكبيرة الإحرام في الصلوات الخمس وذلك في بداية كلّ صلاة، المجموع (٥ مرّات).

التكبير قبل كلّ ركوع، عدد الركعات ١٧ ركعة، فيكون عدد

التكبيرات أيضًا (١٧ مرّة).

في كلّ ركعة سجدتان، ويُستحبّ التكبير مرّتين عند كلّ سجدة؛ واحدة قبل السجود وواحدة بعد السجود، فيكون المجموع (٦٨ مرّة).

في كلّ صلاة قنوت، وقبل كلّ قنوت تكبيرة، المجموع (٥ مرّات).

في نهاية كلّ صلاة من الصلوات الخمس- بعد التسليم- ثلاث تكبيرات، فيكون المجموع (١٥ مرّة).

يُستحبّ التعقيب بتسبيح الزهراء عليها السلام بعد كلّ صلاة، ويتكرّر التكبير ٣٤ مرّة (الله أكبر) فيكون المجموع (١٧٠ مرّة).

من هنا، علينا أن نكون صادقين في تكبيرنا الله عزّ وجلّ، ومن الظلم للنفس أن لا يصدر التكبير الصادق منّا ولو لمرّة واحدة في حياتنا أو عددٍ قليلٍ من المرّات. ولو أنّنا حين نُكبّر نلتفت إلى ما نقول ونستشعر كبر الله وعظمته في نفوسنا لما خشينا شيئًا على وجه الأرض، ولما خفنا مخلوقًا من مخلوقات الله تعالى.

التكبير في غير الصلاة اليوميّة:

- التكبير في صلاة عيدي الفطر والأضحى المباركين، ليس فقط أثناء الصلاة، بل قبل الصلاة وبعدها، فشعار هذه الصلاة هو التكبير، أو فقل هو أذانها.

- التكبير في صلاة الآيات، وهي خمس ركعات، في كلّ ركعة تكبيرة واحدة.

- التكبير في الصلاة على الميت، وهي في الأصل خمس تكبيرات، وهي ركن الصلاة.

التكبير في الثقافة والتاريخ الإسلامي:

ليس محلّ التكبير هو الصلاة فقط، بل دخلت هذه الشعيرة في موارد ومواضع حسّاسة وكثيرة؛ لذلك نرى أنّ المسلمين في صدر الإسلام كانوا يُكبّرون في الأفراح والأتراح، وفي عسر الأمور ويسيرها، وهذه بعض النماذج نُشير إليها في ما يأتي:

بينما كان المسلمون يحفرون الخندق الذي أشار عليهم به سلمان المحمّدي، صادفوا صخرة بيضاء قاسية كسرت المعول ولم تتكسر، فجاء رسول الله ﷺ فأخذ المعول من يد سلمان، فضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابّيتها حتّى لكأنّ ضوءها ضوء مصباحٍ في جوف بيت مظلم، فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح وكبّر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ ثانية فبرق منها برق أضاء ما بين لابّيتها وأنارت الدنيا كسابقتها، فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح وكبّر المسلمون، ثم ضرب بها رسول الله ﷺ ثالثة فحصل ما حصل في الضربتين السابقتين وكبّر النبيّ ﷺ والمسلمون معه[1].

(١) انظر: بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ١٩٠.

في معركة صفّين، كان الإمام عليّ عليه السلام كلّما قتل واحدًا من الأعداء كبّر بصوت عالٍ، فكان المسلمون يعدّون تكبيرات أمير المؤمنين، وبذلك يحسبون عدد القتلى الذين قتلهم بنفسه بعدد التكبيرات[١].

في ليلة زفاف الزهراء عليها السلام إلى بيت عليّ عليه السلام نزل سبعون ألفاً من الملائكة، كلّهم يُكبّرون الله تعالى[٢].

عندما تُوفّيت فاطمة بنت أسد كبّر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على جنازتها ٤٠ تكبيرة، وعندما استشهد عمّه الحمزة فعل ذلك ٧٠ مرّة[٣].

في مراسم الحجّ يُكبّر الحجّاج في كلّ مرّة يرجمون فيها الشيطان (الرجم بالحصى)، في كلّ رمية تكبيرة.

التكبير في تسبيحات الزهراء عليها السلام ٣٤ مرّة، فقد ورد أنّ هذه التسبيحات تعدل ألف ركعة مستحبّة[٤].

أوّل كلمة نطق بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند ولادته كانت (الله أكبر).

عندما فتح المسلمون مكّة ودخلوها، جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخل المسجد الحرام وأشار إلى الحجر الأسود، وكبّر فكبّر خلفه المسلمون، بحيث دخل الرعب إلى قلوب المشركين والمنافقين[٥].

(١) انظر: بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٦٠.
(٢) انظر: بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٠٤.
(٣) انظر: بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٦٣.
(٤) بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٢٤٨.
(٥) تفسير نمونه، ج ٢٧، ص ٤٠٧.

ورد في الحديث: «من أعجبه شيء من أخيه المؤمن فليُكبّر عليه فإنّ العين حقّ»[1].

قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «اللهم اكفني نوفل بن العدوية» وهو نوفل بن خويلد من بني أسد، وأقبل نوفل يومئذ يصيح وهو مرعوب قد رأى قتل أصحابه، وكان يصيح: يا معشر قريش إنّ هذا اليوم يوم العلا والرفعة، ورأى عليًّا عليه السلام مقبلًا نحوه، فقال نوفل: تاللّه ما رأيت كاليوم رجلًا أسرع في قومه، فصمد له عليّ عليه السلام فضربه، فقُتِل، فقال رسول الله ﷺ: من له علم بنوفل ابن خويلد؟ قال عليّ عليه السلام: أنا قتلته، فكبّر رسول الله ﷺ وقال: الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه[2].

عن النبيّ ﷺ أنّه قال لعليّ عليه السلام: يا عليّ إذا رأيت أسدًا أو اشتدّ بك أمر فكبِّر ثلاثًا وقل «الله أكبر وأجلّ وأعزّ وأعظم من كلّ شيء، وأكبر وأعزّ من خلقه وأقدر[3]... وفي الخبر إذا نظرت إلى هلال الشهر وإلى الماء أيضاً فكبّر ثلاثاً.

كان شعار ثورة زيد ابن الإمام السجاد عليه السلام ضدّ حكم بني أمية «الله أكبر».

(١) انظر: بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ١٢٧.
(٢) انظر: بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٣٣٨.
(٣) انظر: بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ١٤٥.

عندما طلب الإمام عليّ عليه السلام الزهراء من والدها الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أجل الزواج، استمهله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لكي يطرح الأمر عليها، فسكتت ولم تُجب، فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**الله أكبر سكوتها إقرارها**»[١].

تقدَّم أحد الكفّار في معركة أحد، وكان بطلًا صنديدًا، فراح يصيح ويطلب المبارزة، فتقدّم إليه عليّ عليه السلام فقتله، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكبّر المسلمون معه[٢].

في حرب الإمام عليّ عليه السلام مع الخوارج قُتِل منهم أربعة آلاف، فلمّا قُتل قائدهم، ويُسمّى المخدج، كبّر عليّ عليه السلام بأعلى صوته ثم سجد فكبّر الناس كلّهم[٣].

أسلم رهطٌ من اليهود، ومنهم عبد الله بن سلام وأسد وثعلبة وابن يامين وابن صوريا، فأتوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا نبيّ الله إنّ موسى أوصى إلى يوشع بن نون فمن وصيّك يا رسول الله؟ ومن وليّنا بعدك؟ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾[٤]، ثم قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: قوموا، فقاموا فأتوا المسجد فإذا سائل خارجٌ، فقال: يا سائل أما أعطاك أحدٌ شيئًا؟ قال: نعم هذا الخاتم، قال: من أعطاكه؟ قال:

(١) انظر: بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٩٣.
(٢) انظر: بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٢٦.
(٣) انظر: بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٣٤١.
(٤) سورة المائدة: الآية ٥٥.

أعطانيه ذلك الرجل الذي يُصلّي، قال: على أيّ حال أعطاك؟ قال: كان راكعًا، فكبّر النبيّ ﷺ وكبّر أهل المسجد، فقال النبيّ ﷺ: علي بن أبي طالب وليّكم بعدي، قالوا: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمّد نبيًّا وبعليّ بن أبي طالب وليًّا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1].

التكبير عند الدخول إلى حرم الأئمة المعصومين عليهم السلام، وذلك قبل قراءة الزيارة الجامعة، نكبّر ١٠٠ مرّة وعلى مراحل ثلاث، وعلّة ذلك كما بيّنها العلامة المجلسي في بحاره، كي لا يُبتلى الموالي بالغلوّ عند قراءة الزيارة الجامعة.

ورد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يُكبّر عندما يقضي بين الناس ويكشف المجرم[2].

نقرأ في قصة شهادة ميثم التمّار أنّ ابن زياد صلبه على جذع نخلة، وذلك لحبّه أمير المؤمنين وموالاته إيّاه، فلما كان اليوم الثالث من صلبه طُعن ميثم بالحربة فكبّر، ثم انبعث الدم من فمه وأنفه، وهذا من جملة إخبار أمير المؤمنين عليه السلام بالغيب[3].

في الخبر أنّ النبي ﷺ كلّما صعد سماء - أثناء المعراج - كبّر تكبيرة[4].

(١) انظر: بحار الأنوار، ج ٣٥، ص ١٨٣.
(٢) انظر: بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ٢٦٠.
(٣) انظر: بحار الأنوار، ج ٣٩، ص ٩٨- ٩٩.
(٤) انظر: بحار الأنوار، ج ٨٦، ص ٢٠٧.

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[1] قال: كان جبرائيل عليه السلام جالسًا عند النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن يمينه إذ أقبل أمير المؤمنين عليه السلام، فضحك جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمّد هذا عليّ بن أبي طالب قد أقبل، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا جبرائيل وأهل السماوات يعرفونه؟ قال: يا محمّد والذي بعثك بالحقّ نبيًّا إنّ أهل السماوات لأشدّ معرفة له من أهل الأرض، ما كبّر تكبيرة في غزوة إلا كبّرنا معه، ولا حمل حملةً إلّا حملنا معه، ولا ضرب بسيف إلّا ضربنا معه، يا محمّد إن اشتقت إلى وجه عيسى وعبادته وزهد يحيى وطاعته وملك سليمان وسخاوته فانظر إلى وجه عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ...﴾ الآية، يعني شبهًا لعليّ بن أبي طالب، وعليّ بن أبي طالب شبهاً لعيسى بن مريم ﴿...إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ يعني يضحكون ويعجبون[2].

عندما دخل المسلمون حصن خيبر دخلوا وهم يُكبّرون بصوت عال، فأدخلوا الرعب إلى قلوب اليهود، فلم يصمدوا وفرّوا من أمام المسلمين[3].

(١) سورة الزخرف: الآية ٥٧.

(٢) انظر: بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٣٣٨.

(٣) بيامبرى وحكومت (النبي والدولة)، ص ١٤٦.

كيف نكبر في الصلاة؟

لقد بيّن الإسلام لكلّ عملٍ من الأعمال آدابه الخاصة، كذلك بالنسبة إلى عبارة «**الله أكبر**» لها آداب يجب مراعاتها:

رفع اليدين حتّى يبلغا الأذنين عند التكبير، فيتمّ التكبير عند وصول اليدين إلى مقابل الأذنين، وذلك بالابتداء بالرفع عند ابتداء التكبير والانتهاء عند الانتهاء من التكبير. كذلك، التوجّه عند التكبير إلى الله تعالى بحضور القلب والابتهال، فهذا مؤثّر جدًّا أثناء الصلاة. ورد عن الإمام الرضا عليه السلام: قال: «**إنّما تُرفع اليدان بالتكبير لأنّ رفع اليدين ضرب من الابتهال والتبتّل والتضرّع فأحبّ الله عزّ وجلّ أن يكون العبد في وقت ذكره له متبتلًا متضرّعًا مبتهلًا**»[1].

ضم أصابع اليد عند التكبير ورفع اليدين.

مواجهة الكفّين للقبلة، وقد ورد في الروايات الإسلامية أن رفع اليدين أثناء التكبير يُعدّ زينة الصلاة.

معنى التكبير:

الله أكبر تعني أنّه عزّ وجلّ أكبر وأعظم من جميع الموجودات المحسوسة والمعقولة، والمُلْكية والملكوتية. الله أكبر يعني أنّه تعالى أكبر وأعظم من أن يوصف؛ فالتكبير هو استشعار عظمة الله

(١) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٧٢٧.

سبحانه وكبريائه، واستصغار ما سواه حال التكبير، كما روي عن الإمام الصادق [1] عليه السلام، أمّا أن يقول الإنسان اللّه أكبر بلسانه، بينما قلبه متعلّق بشيء آخر فهذا كذب واحتيال، لذلك يشعر الإنسان أنّ اللّه تعالى قد سلب منه حلاوة ذكره.

يقول الشاعر الفارسي:

يا من هو أكبر من الخيال والقياس والظنّ والوهم، وأكبر من كلّ ما نقول ونسمع ونقرأ. لقد انتهى المجلس وختم العمر بالنهاية، وها نحن ما زلنا في بداية وصفك.

(١) الشيخ البهائي العاملي، الاثنا عشرية، ص ٤٧.

سورة الحمد:

بعد تكبيرة الإحرام يجب قراءة سورة الحمد، وتبطل الصلاة بتركها عمدًا، وقد ورد في الأخبار الفقهيّة: «**لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب**».

ويطلق أيضاً على سورة الحمد «**فاتحة الكتاب**»؛ لأنّ القرآن يُفتتح بها. في هذه السورة «**٧ آيات**»[١]، وفي رواية جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله ﷺ أنّها أفضل سور القرآن. وهي السورة الوحيدة التي يجب على كلّ مسلم أن يقرأها (١٠ مرّات) كحدٍّ أقل في صلواته الخمس، ويكفي في أهمية هذه السورة وعظمتها أنّه ورد في شأنها أنّها لو قُرئت على ميت سبعين مرّة فإنّه لا عجب إن حيي![٢].

معلوم من اسم هذه السورة «**فاتحة الكتاب**» أنّ آيات القرآن جميعها قد جمعت زمن رسول الله ﷺ في كتاب «**هو القرآن الذي بين أيدينا**»، وقد جعلت هذه السورة «**الحمد**» في بداية القرآن بأمر من رسول الله ﷺ. في آيات هذه السورة المباركة إشارات

(١) العدد (٧): عدد السماوات، أيام الأسبوع، عدد أشواط الطواف، السعي بين الصفا والمروة، وعدد الحصى التي يرجم بها الشيطان.

(٢) انظر: تفسير نور الثقلين، ج١، ص٤.

إلى الله سبحانه وتعالى وإلى صفاته، وإلى المعاد، وطلب الحق والهداية ومعرفة الطريق والسبيل المستقيم، والسلوك في طريقه، وقبول حكم الله تعالى، وربوبيّته ورحمانيّته، كما وتُبرز هذه السورة علاقة الإنسان وارتباطه المباشر والوثيق بالله تعالى في استمرار خطّ الأولياء والأوصياء، والتبرّؤ من الضالّين والمغضوب عليهم.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: «ألا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟» قال جابر: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله، علّمنيها. فعلَّمه الحمد أم الكتاب، وقال: هي شفاء من كلّ داء، إلا السام، والسام الموت[1]. فهي شفاء من الأسقام البدنية والروحية. وينقل المرحوم العلّامة الأميني في كتاب تفسير سورة الفاتحة روايات كثيرة. هذه السورة تتضمّن توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، وبعبارة أخرى، مراحل الإيمان الثلاث: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان، فالفاتحة هي أمّ الكتاب.

ملامح الدروس التربوية في سورة الحمد:

عند تلاوة سورة الحمد والابتداء بـ «بسم الله» يقطع الإنسان أمله ورجاءه من كلّ ما سوى الله تعالى.

(١) تفسير نور الثقلين، مقدمة سورة الحمد.

عندما يقرأ «ربّ العالمين»، و«مالك يوم الدِّين» يشعر بأنّه مملوك ومربوب.

بكلمة «عالمين» يشعر الإنسان بالعلاقة بين ذاته والعالم، ويُقيم هذا الارتباط.

«الرحمن الرحيم» بهذه العبارة يرى الإنسان نفسه في ظلّ لطفه الواسع عزّ اسمه.

عندما يقول الإنسان «مالك يوم الدِّين» تُمحى غفلته عن الآتي والمستقبل، ويتذكّر أنّ يوم القيامة آتٍ لا محالة، وأنّ له مالكاً هو الله.

بعبارة «إيّاك نعبد» يُنحّي الإنسان أنانيته وغروره وحبّ الشهرة جانبًا، ويبتعد عن الرياء والسمعة.

«إيّاك نستعين» تعني أن لا يُفكِّر الإنسان في طلب العون والمساعدة من غير الله تعالى.

يفهم من كلمة «أنعمت» أنّ تقسيم النعم بيده عزّ شأنه، فلا مكان للحسد، لأنّ الحسود يعلن الاعتراض على حكم الله تعالى وعدله في تقسيم الأرزاق.

بعبارة «اهدنا الصراط المستقيم» نطلب السير على طريق الحق والهداية.

جملة «صراط الذين أنعمت عليهم» إعلان عن الانتماء إلى جماعة أولياء الله والسائرين على صراطه.

وفي الختام يقول: «غير المغضوب عليهم ولا الضالّين»، وهذا إعلان البراءة من الباطل وأهله، ممن ضلّوا الصراط، واستحقّوا العذاب الإلهي.

بسم الله الرحمن الرحيم

دأبت الأمم والشعوب على أن تبدأ كلّ عمل هام وذي قيمة باسمِ كبيرٍ من رجالها، يكون شخصيّة محترمة ومحبوبة، لكي يبدأ العمل وينتهي بالبركة والخير. ومن المؤكّد أنّ كلّ شعب أو مجموعة تعمل بناءً لعقائدها وأفكارها، سواء كانت صحيحة أم فاسدة؛ فالبعض يبدأ أعماله ومشاريعه بأسماء الأصنام والطواغيت، والبعض الآخر باسم الله وذكره وعلى يد أولياء الله تعالى. فكما أنّ اليوم يوضع الحجر الأساس لكلّ مؤسّسة هامّة، أو بناء ضخم، أو مشروع كبير على يد شخصية كبيرة ومرموقة، كذلك في التاريخ الإسلامي، نرى أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ضرب أوّل معول عندما حفر المسلمون الخندق في معركة الخندق.

القرآن كتاب الوحي يبدأ ببسم الله، فالآية الأولى التي أنزلها الله على نبيه الكريم تحمل أمراً لصاحب الرسالة، أن يبدأ مهمّته الكبرى باسم الله: اقرأ باسم ربّك... ولذلك أيضاً فإنّ نوحًا عليه السلام - حين يركب السفينة في ذلك الطوفان العجيب، ويمخر عباب الأمواج الهادرة، ويواجه ألوان الأخطار على طريق تحقيق هدفه - يطلب من أتباعه أن يُردّدوا البسملة في حركات السفينة

وسكناتها: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[1]؛ وانتهت هذه الرحلة المحفوفة بالأخطار بسلام وبركة، كما يذكر القرآن الكريم. وسليمان عليه السلام يبدأ رسالته إلى ملكة سبأ بالبسملة: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[2]. وانطلاقًا من هذا المبدأ تبدأ كلّ سور القرآن بالبسملة، كي يتحقّق هدفها الأصل المتمثّل بهداية البشرية نحو السعادة، ويحالفها التوفيق من البداية إلى ختام المسيرة. وتنفرد سورة التوبة بعدم بدئها بالبسملة؛ لأنّها تبدأ بإعلان الحرب على مشركي مكة وناكثي الإيمان، وإعلان الحرب لا ينسجم مع وصف الله بالرحمن الرحيم.

ورد عن أمير المؤمنين أنّ «بسم الله» بركة الأعمال وتركها يوجب الفساد. وكذلك ورد أنّه عليه السلام نظر إلى رجل يكتب «بسم الله» فقال له: «جوّدْها إنّ رجلاً جوّدها فغفر الله له»[3].

لقد أوصى الدِّين الحنيف بجريان عبارة «بسم الله» على اللسان في كلّ عمل وموضع، وفي بداية جميع الأعمال؛ عند الطعام والنوم، والركوب، والزواج وجميع الأعمال الأخرى، ومن المعلوم أنّ الذبيحة لا تحل إلا إذا ذُكِر اسم الله عليها، وسرّ ذلك، أنّ طعام الإنسان له هدف، ووجهته التوحيد، وجهته خالق الوجود الله تعالى.

(١) سورة هود: الآية ٤١.
(٢) سورة النمل: الآية ٣٠.
(٣) كنز العمال، ج١٠، ٣١٢.

لماذا البدء بالبسملة؟

كما أنّ أيّ إنتاج لأيّ مصنع يجب أن يحمل علامة تُسمّى **«العلامة المسجّلة»** أو **«الماركة»** التي تخصّ هذا الإنتاج بالذات، وكما أنّ كلّ وطن له علَمه الخاص الذي يُعرف به، ويُرفع في الساحات، وعلى السفن، والسفارات، كذلك الأمر، فإنّ **«بسم الله»** هي رمز الإنسان المسلم وعلامته؛ هذا الرمز المبارك ينطق به المسلم عند كلّ عمل صغير أو كبير، وفي كلّ مكان، سواء المسجد أم المعمل أم المنزل، وفي كل وقت وآن، صباحًا ومساءً، لذلك نقرأ في الحديث الشريف **«لا تنسى بسم الله حتى في كتابة بيت واحد من الشعر»**[1]. وعن رسول الله ﷺ: **«إذا قال المعلِّم للصبي: قل بسم الله فقال الصبي بسم الله الرحمن الرحيم يكتب الله براءة للصبي، وبراءة لأبويه، وبراءة للمعلِّم من النار»**[2].

بحث: هل البسملة جزء من السورة؟

على الرغم من أنّ بعض العلماء والفقهاء لا يعدّون البسملة جزءاً من السورة، ولا يقرأونها في الصلاة، غير أنّ أكثر علماء المسلمين يُجمعون على أنّها جزء من سورة الحمد، وكلّ سور القرآن، على أنّ ذكر البسملة معمول به منذ زمن الرسول ﷺ، وقد اعترض

(١) انظر: تفسير البرهان، ج١، ص٢٣.

(٢) انظر: تفسير نور الثقلين، ج ١، تفسير سورة الحمد.

المسلمون على معاوية عندما صلّى بالناس، ولم يقرأ البسملة، فقالوا له: «**يا معاوية أسرقت الصلاة أم نسيت؟**»[1]. ويورد الفخر الرازي في تفسيره ستة عشر دليلًا على أنّ البسملة جزء من سورة الحمد. ويذهب الأيّوبي في تفسيره إلى هذا الرأي. وأورد أحمد بن حنبل عددًا من الأخبار تُفيد أنّ البسملة جزء من كلّ سورة من سور القرآن.

أمّا أهل بيت رسول الله عليهم السلام - وهم أعلم بكتاب الله تعالى بعد رسوله، وهم القادة والسادة والسابقون لجميع المذاهب الفقهية بأكثر من مئة سنة، وهم المضحّون والمستشهدون في سبيل الله، وقد وردت عصمتهم في القرآن بالتصريح- فمدرستهم عليهم السلام جعلت البسملة آية مستقلّة وجزءًا من السورة، وقد أصرّوا على أن تُذكر في الصلاة وبصوت عالٍ. فعن معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إذا قمت للصلاة أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب؟ قال نعم، قلت: فإذا قرأت فاتحة الكتاب أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم مع السورة؟ قال نعم[2].

وفي عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام قال: والإجهار بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) في جميع الصلوات سنّة. وعنه عليه السلام أنّه كان يجهر بـ «**بسم الله الرحمن الرحيم**» في جميع صلوات بالليل

(١) مستدرك الحاكم، ج ٢، ص ٢٣٣.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، تفسير سورة الحمد، ص ٩.

والنهار[1]. وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام عندما ذكروا أمامه أنّ أناسًا لا يقرأون البسملة في صلاتهم، ولا يعدّونها جزءًا من السورة قال: «سرقوا أكرم آية»[2]. ويذكر العلّامة الشهيد مطهّري في تفسيره لسورة الحمد كلّاً من ابن عباس، وعاصم، والكسائي، وابن عمر، وابن النذير، وعطاء، وطاووس، والفخر الرازي، والسيوطي من الذين يعدّون البسملة جزءًا من السورة.

دروس وتعاليم من وحي البسملة:

«بسم الله» علامة الصبغة الإلهية، ومظهر وجهتنا التوحيدية.

«بسم الله» رمز التوحيد، أمّا أسماء غيره فهي رمز الكفر، والجمع بين اسم الله وأسماء غيره شركٌ، فلا يجوز أن يوضع اسمٌ مهما كان محلّ اسم الله سبحانه، ولا يذكر اسم مع اسمه؛ لأنّ معنى «سبّح اسم ربّك» هو تنزيه اسم الخالق من كلّ شريك.

«بسم الله» رمزُ البقاء والدوام، وكلّ شيء لا يُصبغ بالصبغة الإلهية فانٍ وهالكٌ[3].

«بسم الله» رمز حبّ الله، والتوكّل عليه.

«بسم الله» رمزُ تجنّب التكبّر من جهة، وإظهار العجز أمام الحضرة الربوبية من جهة أخرى.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، تفسير سورة الحمد، ص ١٠.

(٢) مسند أحمد، ج ٣، ص ١٧٧، وج ٤، ص ٨٥.

(٣) ﴿□ □ □ □ □□﴾. سورة القصص: الآية ٨٨.

«بسم الله» رمز ضمان الأعمال باسم الله عزّ وجلّ.

«بسم الله» رمز القداسة التي تُعطى للأعمال.

«بسم الله» رمز الذكر الدائم لله تعالى، فعندما نقول بسم الله، يعني لا ننسى الله في كلّ حال.

«بسم الله» إعلان عن الهدف الذي يتبنّاه الإنسان؛ وكأنّه يقول إلهي أنت هدفي وغايتي، ولا أبغي سواك أحدًا، لا دنيا ولا مال ولا غير ذلك ممّا يطلبه أهل الدنيا.

«بسم الله» تعني حصر الاستعانة وطلب المساعدة بالله وحده.

«بسم الله» تعني أنّ سور القرآن، وما فيها من تعاليم ومضامين، نازلة من عند مبدإ الحقّ ومظهر الرحمة.

كلمة اللّه:

يؤمن عددٌ من العلماء الذي بحثوا عن أصل كلمة «الله» وحلّلوها، أنّ أصل هذه الكلمة من الفعل «ألـه» بمعنى عبد. و«الله» تعني المعبود الحقيقي الواقعي، وهي الجامعة لتمام الكمالات، والجامع لكلّ صفات الجلال والجمال، هو «الله» تعالى. ويرى آخرون أنّ أصل الكلمة من الفعل أو المصدر «وله» بمعنى الحبّ والعشق أو التعلّق المفرط والحيرة في المعشوق؛ من هنا، فقد قالوا إنّ كلمة «الله» تعني الذّات المقدّسة التي هي مركز جذب الموجودات العاشقة له، الوالهة والمتحيّرة فيه.

يجب الالتفات إلى أنّ كلمة «خدا» بالفارسية أو «خداوند» ليست الترجمة الكاملة لكلمة «الله»؛ لأنّ كلمة «خدا» هي في الأصل «خود آى» والتي هي في الفلسفة تقال لـ «واجب الوجود»، وكلمة «خداوند» تعني الصاحب، كما جاء في الأدبيات الفارسية «خداوند خانه» أي صاحب البيت. ولا شكّ في أنّ معنى صاحب أو الوجود الواجب، يبقى قاصرًا ولا يرقى إلى كلمة «الله»، بل إنّ كلمة الله تعني الذّات اللائقة للعشق والحب والعبادة؛ لأنّها جامعة لجميع الكمالات والصفات الجمالية والجلالية.

ورد في القرآن الكريم حوالى ١٠٠ اسم لله تعالى وهي (أسماء الله الحسنى)، و «الله» هي الكلمة الجامعة لكلّ هذه الأسماء، والتي هي صفات «الله» سبحانه وتعالى، فكل اسم من أسماء الله تعالى يُشير إلى صفة من صفاته تعالى، وليس فقط علامة أو إشارة إلى الله تعالى. فمثلاً أسماء البشر كثيرة ومختلفة، فبعض الأسماء هي إشارة إلى الشخص فقط وليست صفة من صفاته، ولا يتطابق اللفظ ومعناه مع صفات صاحب الاسم، بل في بعض الأحيان يكون معنى الاسم مخالفًا لصفات الشخص، فقد يكون اسم شخص «صادقًا»؛ لكنّه قد يكون في واقع الأمر «كاذبًا»! وفي بعض الأحيان يتطابق الاسم مع المسمّى وصفاته، كأن يكون اسمه «صادق»، وهو في الحقيقة إنسان «صادق»، فيكون اسمًا على مسمّى.

يقول تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ

بِهَا﴾، وهي أسماء اللّه الحسنى والتي ورد في الروايات أنّها ٩٩ اسمًا، ومن دعا بهذه الأسماء كان مستجاب الدعاء[١]، كذلك نقرأ في دعاء الجوشن الكبير، فندعو اللّه تعالى بألف اسم وصفة.

وردت كلمتا «الرحمن» و «الرحيم» بعد كلمة «اللّه»، لتبيّن لنا أنّ كلّ عمل ينبغي أن يبدأ بطلب المدد والعون (من اللّه) بصفة تشمل آثارها جميع المخلوقات، فيكون أمله ورجاؤه بلطف اللّه تعالى ورحمته، ويعلم أنّ اللّه عزّ وجلّ هو منشأ جميع الألطاف والرحمات والآمال، من هنا، فإنّ رمز بدء العمل بلفظة الرحمة هو أنّ الأصل والبناء الإلهي هو اللطف والرحمة، وأنّه من اللائق، لا بل من الضروري أن يستمدّ الإنسان العون والمدد من منبع الرحمة غير المتناهية. و «الرحمن» من الأسماء الخاصة باللّه تعالى؛ لأنّ رحمته فقط واسعة ودائمة وثابتة، أمّا الغير فإمّا لا يملكون صفة الرحمة، فإن اتّصفوا بها فهي ليست واسعةً ولا دائمةً ولا ثابتةً، إضافة إلى أنّهم يتوقّعون الجائزة الدنيويّة أو الأخرويّة فهم «يطعمون البقرة من أجل الحليب». وسيأتي البحث في ما يتعلّق بلفظتي «الرحمن» و «الرحيم» في ذيل الآية مفصّلاً إن شاء اللّه تعالى.

(١) تفسير نمونه، ج ٧، ص ٢٧.

الحمد للّه ربّ العالمين:

الثناء والحمد والشكر للّه تعالى الذي خلق الوجود كلّه، وسيّره نحو الكمال.

الحمد للّه:

على الرغم من أنّ كلمات الحمد، والمدح، والشكر متشابهة في الظاهر من ناحية المعنى، فإنّ لكلّ كلمةٍ منها استخدام خاص، ومعنى متميّز، «**فالمدح**» هو الثناء بشكل عامّ، سواء كان على أمر اختياريٍّ أم غير اختياريٍّ، بحقّ أو بغير حقّ، بسبب كمالات الشخص أو بسبب الطمع والخوف، ونتيجة الوعي والمعرفة أم نتيجة الغفلة وسوء التقدير... وكلمة الشكر مفهومها خاصّ يقتصر على ما نُبديه تجاه نعمةٍ تُغدق علينا من مُنعِم يُنعِم علينا بإرادته واختياره، فالشكر يكون في مقابل الخير والنعمة. أمّا الحمد فبالإضافة إلى الشكر والمدح فهو ينطوي على معنى آخر وهو العبادة، يعني الشكر والمدح الذي يصل إلى حدّ العبادة؛ لذلك يمكن القول إنّ المدح والشكر قد يكونان للّه وقد يكونان لغيره عزّ وجلّ، أمّا الحمد فلا يصحّ أن يكون لغير اللّه تعالى شأنه.

وردت بعد عبارة «**الحمد للّه**» أربع صفات للّه عزّ وجلّ وهي: «**ربّ العالمين**» و«الرحمن» و«الرحيم» و«مالك يوم الدِّين»، وهي تشير إلى أنّ الإنسان يجب أن يحمد اللّه عزّ وجلّ بسبب هذه الألطاف

والعظمة والربوبيّة، لكن قبل هذه الصفات الأربع جاءت كلمة «الله»، وهذا يعني أنّ الحمد فقط لله، يختصّ به سبحانه وتعالى؛ لأنّه وحده أهل للحمد، حتّى لو فرضنا أنّه والعياذ بالله لا يتّصف بهذه الصفات التي وردت لاحقًا.

يقول الشاعر الإيراني:

«إذا كنت تنظر إلى الحبيب طمعاً بإحسانه فأنت لم تتحرّر من ذاتك، ولم تصر أسيرًا للحبيب»[1].

ربّ العالمين:

الله تعالى هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾[2]، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾[3]. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال: **«ربّ العالمين من الجماعات من كلّ مخلوق من الجمادات والحيوانات»**[4]. وقد يُراد من كلمة عالمين الإنسان أحيانًا؛ غير أنّ المراد منها في هذه الآية هو المعنى الأوسع، فعالمين جمع عالَم، والعالَم مجموعة من الموجودات والمخلوقات المختلفة- عالَم الإنسان وعالَم الحيوان وعالَم النبات، و«عالَمين» تعني كلّ مجموعات هذا العالم، أي

(١) شعر فارسي.
(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٣.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٦٤.
(٤) تفسير سورة الثقلين، ج١، ص ١٧.

جميع المخلوقات. وعلى ضوء هذا يتّضح بطلان الاعتقاد بوجود ربٍّ خاصٍّ لكلّ نوع من أنواع الموجودات. وهذا ما كان يؤمن به أهل الجاهليّة ويسمّونه «ربّ النوع»، وهذا أيضًا ما كانت تؤمن به بعض الأمم حيث كانوا يعتقدون بوجود ربٍّ للزرع والمطر وما شابه. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

لقد خلق الله تعالى جميع الموجودات، وعيّن لها مسيرًا نحو الرشد والتكامل، فالتربية الإلهيّة هي هذا المسير، مسير الهداية الذي خطّه لها خالقها: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]. لقد منّ الله سبحانه على جميع الموجودات بنعمة الوجود، وهداها لتسير في خطّ الكمال، فهو الذي علّم النحل من أيّ الزهور تمتصّ الرحيق لتجني العسل، وعلّم النملة كيف تدّخر قوتها إلى فصل الشتاء، وخلق جسم الإنسان بهذه الصورة التي خلقه عليها، والتي يصدق فيها قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[2]؛ بحيث تتجدّد خلاياه تلقائيًّا، ويتولّد الدم في عروقه وشرايينه بصورة ذاتية عجيبة.

إنّ خالقًا كهذا أهل للحمد والثناء. والحمد من خصوصيات الإنسان، فهو يظهر الثناء في مقابل الجمال والكمال، والشكر في مقابل النعم والإحسان، والله تعالى يليق به الحمد والثناء والشكر، فهو أهل للثناء والحمد لكماله وجماله، وأهل للشكر لإحسانه

(١) سورة طه: الآية ٥٠.
(٢) سورة التين: الآية ٤.

وإنعامه. من جهة ثانية، فإنّ مدح المخلوق والثناء عليه لا يتنافى مع حمد الخالق والثناء عليه، بشرط أن يكون في أمر الله وطاعته ومسيره، وفي الحقيقة، إنّ الثناء على العبد ينطلق من الثناء عليه سبحانه؛ لأنّ مواهب الواهبين وعطاء المعطين إنّما في الأصل من ذاته المقدّسة، فشكر هؤلاء والثناء عليهم هو حمد لله تعالى، وفي أي لغة كان الثناء فهو ينبع من الحمد.

ربّ العالمين: هذه العبارة تدلّ على أنّ العلاقة بين الربّ (الإله الخالق) والعالمين (المخلوقات) هي علاقة دائمة ووثيقة فالربّ من التربية والرعاية والإيصال إلى الرشد والكمال، ولا تنحصر ربوبيّة الله بالمؤمنين وحدهم بل ربّ ومربٍّ للمخلوقات كلّها، وقد عبّر القرآن عن هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1]؛ إذًا عطاء الله ممدود للمحسنين والمسيئين على حدٍّ سواء، والساحة مفتوحة للجميع، والظروف متاحة للجميع، لكي يصل كلّ واحد إلى الهدف الذي يشاء، لكن بالطبع، بما أنّ الدنيا دار تزاحم وتدافع وتمانع، فمن الطبيعيّ أن لا يصل كلّ الأشخاص إلى كلّ أهدافهم، وأن لا ينال كلٌّ منهم كلّ ما يبتغيه.

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

ربّ العالمين تعني أنّ الله سبحانه مالك الوجود ومدبّره، فكلمة «**ربّ**» أصلها إمّا من من (رَبَيَ) بمعنى الرشد والتربية، وإمّا من كلمة «**ربّ**» بمعنى الصاحب، والله تعالى هو صاحب العالم، وهو المربّي والمدبّر في آن: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]؛ فالخلق منه وله وإليه، وهو المدبّر والمدير لهذا العالم، وهو الهادي والمربي. وعبارة «**الحمد لله ربّ العالمين**» هي أفضل ما يمكن أن يُقال في شكر الله تعالى، بحسب ما ورد في الأخبار عن أهل البيت عليهم السلام؛ وتوصي بعض الروايات والأحاديث بحمد الله والثناء عليه قبل أن ندعوه ونطلب منه حاجاتنا، وإلا فإنّ الدعاء يكون ناقصًا، ليس فقط في بداية الدعاء والتضرّع، بل نقرأ أنّ أهل الجنة يُكرّرون هذا القول في ختام دعائهم، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

الرحمن الرحيم:

«**الرحمن والرحيم**» هاتان الكلمتان وإن كانتا من أصل واحد هو «**الرحمة**»، غير أنّ الرحمن تُشير إلى الرحمة الإلهيّة العامّة، فهي رحمة ابتدائية تشمل جميع البشر، الأولياء والأعداء والمحسنين والمسيئين، فالكلّ ينالون حظّهم من مائدة نعمته غير المتناهية،

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٢) سورة يونس: الآية ١٠.

وهي رحمة عامّة شاملة لعالم الوجود كلّه وما فيه من كائنات. أمّا صفة «الرحيم» فهي خاصّة بالعباد الصالحين المطيعين، فهي الرحمة التي يستحقّها المؤمنون جزاء أعمالهم الحسنة. وإلى هذا المعنى يُشير الإمام الصادق عليه السلام في قوله: «والله إله كلّ شيء الرحمن بجميع خلقه، الرحيم بالمؤمنين خاصّة»[1]. والله تعالى قد أوجب على نفسه الرحمة، فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2]. كما بعث رسوله الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكتابه الكريم ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3].

من جهة ثانية، فإنّ التربية الإلهية قائمة على أساس الرحمة، في حين أنّ العذاب والعقاب أيضًا من لوازم التربية، تمامًا كالمعلّم الذي يؤدّب المتربّي فيُعاقبه، وما غفران الذنوب وقبول توبة العباد، وستر العيوب والتكفير عن السيّئات، ومنح العبد الفرصة تلو الفرصة لجبر ما فات، سوى مظاهر لرحمته الواسعة.

إنّ الوجود كلّه من تجلّيات رحمة الله عزّ وجلّ، وكلّ شيء يصل منه إلى الموجودات هو لطف منه ورحمة. ومن هذا المنطلق، فإنّ جميع سور القرآن الكريم تبدأ بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم». جاءت عبارة «الرحمن الرحيم» إلى جانب عبارة «ربّ

(١) انظر: الكافي، وتوحيد الصدوق، ومعاني الأخبار، والأمثل، ج ١، ص ٣٢.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥١.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

العالمين»، وهذا يعني أنّ التربية الإلهية مبنيّة على أساس اللطف والرحمة، كما أنّ تعليمه أيضًا قائم على الرحمة والعطف كما في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[1]، وهذا في الحقيقة درسٌ لنا نحن البشر، فالمعلّم والمربّي يجب أن يكون دائمًا رحيمًا وعطوفًا.

مالك يوم الدِّين:

الله تعالى هو المالك وهو المَلِك، والوجود أيضًا مِلك تحت مالكيّته، ومُلك تحت سلطته وحكومته، ومالكيّته وسعت كلّ شيء، وهي شاملة لكل شيء، وحتى الحكومة فهي تحت مالكيته: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾[2]؛ كما الإنسان بالنسبة إلى أعضاء الجسم، فهو مالك، وفي الوقت نفسه حاكم عليها وآمر لها، غير أنّ مالكية الله تعالى واقعية، وليست اعتبارية تعاقديّة، الله تعالى هو مالك الدنيا والآخرة، لكنّ الإنسان يرى نفسه في الدنيا مالكًا لبعض الأشياء والأمور؛ لذلك يغفل عن المالك الأصليّ والحقيقيّ. لكن في ذلك اليوم، حيث تنقطع جميع الأسباب، وتُمحى الانتسابات، ويُختم على اللسان، وتُدرك مالكيّة الله تعالى بصورة واضحة، فتكشف السرائر، عندها، يأتي الخطاب: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، عندئذ تفتح العيون، ويأتي الجواب الواضح الذي لا لبس فيه ولا

(١) سورة الرحمن: الآيتان ١ – ٢.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

شكّ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1].

ومن دلالات هذه الكلمة أنّ على المصلّي أن يتذكّر يوم القيامة؛ لأنّه يُكرّر في صلاته كلّ يوم مرّات عدّة عبارة «مالك يوم الدِّين»، وعلى المؤمن أن يلتفت إلى لوازم هذا المفهوم وآثاره، فيتذكّر يوم القيامة ليس في صلاته فحسب، بل في كلّ عملٍ يُقدم عليه.

كلمة الدِّين:

لكلمة الدِّين في اللغة معانٍ عدّة:

تعني الشريعة والقانون الإلهي، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[2].

العمل والطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[3].

الحساب والجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ والجزاء أبرز مظاهر القيامة. ومن أسماء يوم القيامة «يوم الدِّين»، كما ينقل القرآن على لسان المنكرين ليوم الحساب: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[4]، أي متى يوم القيامة؟ أو في مقام آخر حيث يخبرنا عن يوم الجزاء معرّفاً: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[5]. إنّ عبارة

(١) سورة المؤمن: الآية ١٦.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩.
(٣) سورة الزمر: الآية ٣.
(٤) سورة الذاريات: الآية ١٢.
(٥) سورة الإنفطار: الآية ١٨- ١٩.

«مالك يوم الدِّين» إنذارٌ وتحذيرٌ! وكأنّها تقول للمصلّي: فكّر اليوم في غدك، ذلك اليوم الذي يصفه الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾[1]، اليوم الذي يصدق عليه أنّه يوم: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾[2]، ذلك اليوم الذي لا يؤذن فيه لصاحب لسانٍ بالاعتذار، ولا لمفكّر بفرصة للتفكير والبحث عن جوابٍ، ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح المقرون باللطف الإلهيّ.

أما ورود عبارة «مالك يوم الدِّين» بعد «الرحمن الرحيم» وإلى جانبها مباشرة، فيشير إلى أنّ البشرى والإنذار يجب أن يكون أحدهما إلى جانب الآخر، وينبغي أن يجتمع الترغيب والترهيب في سياقٍ واحدٍ. ونقرأ في آية أخرى قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[3]؛ غفور رحيم إلى جانب عذاب أليم، وكذلك يقول سبحانه في موضع آخر: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ﴾[4].

بناءً عليه، فإنّ عبارة «الرحمن الرحيم» جاءت لإثارة الأمل والرجاء، و«مالك يوم الدِّين» يُراد منها التحذير والإنذار، والمسلم يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، بين البشرى والإنذار، لكي لا يغترّ بنفسه من جهة، ولا ييأس من رحمة الله تعالى من جهة أخرى.

(١) سورة الشعراء: الآية ٨٨.
(٢) سورة الممتحنة: الآية ٣.
(٣) سورة الحجر: الآيتان ٤٩- ٥٠.
(٤) سورة غافر: الآية ٣.

إيّاك نعبد وإيّاك نستعين:

«إيّاك نعبد» تعني أنّنا نحن فقط عبيدك، ولسنا عبيد الآخرين. فلهذه الجملة بعدان: البعد الأوّل: إثبات العبودية لله سبحانه. والبعد الثاني: نفي العبودية للغير. نعم، المدرسة الكاملة والإيمان الكامل يعني الكفر بالطاغوت إلى جانب الإيمان بالله الواحد الأحد، أمّا الذين يؤمنون بالله تعالى؛ لكنّهم يقبلون سلطة الطاغوت فهؤلاء أنصاف مسلمين، ولعلّهم ليسوا بمسلمين! فالإيمان بالله سبحانه دون الكفر بالطاغوت يعني أنّ المسلم أسير! لذلك يجب اللجوء إلى مركز الوحدة والقدرة، من أجل التحرُّر من الاستكانة إلى مدار الشرك والخروج منه، من هنا، فإنّ المصلّي يجب أن لا يرى أنّه الوحيد الذي يُناجي الله عزّ وجلّ؛ بل عليه أن يشعر أنّه يخاطب الله نيابة عن جميع المسلمين، وكأنّه يقول: ربّي أنا لا أليق وحدي بعبادتك ولست أهلًا لذلك؛ بل أنا أتوجّه إليك مع سائر المؤمنين وأضمّ عبادتي إلى عبادتهم لنتوجّه جميعًا إليك بالعبادة ونرفع أيدينا جميعًا بالاستعانة. فالعبادة والصلاة خاصّة فيها هذه الروح الجمعيّة ولعلّه لهذا السبب شُرِّعت صلاة الجماعة، فعلى العبد أن يستشعر وجوده ضمن الجماعة، وهذا يعني رفض الانعزال والفردية. وهذا من دلالات تقديم صلاة الجماعة على الصلاة فرادى التي هي بحسب الإسلام ينبغي أن تكون الحالة الاستثنائيّة للصلاة.

تحدّثت الآيات السابقة عن توحيد الذات والصفات، عن التوحيد النظري والمعرفة الصحيحة، وهذه الآية تتحدّث عن التوحيد العباديّ والعملي. توحيد العبادة: هو الإيمان بأنّ الله سبحانه هو وحده من يستحقّ العبادة والطاعة والخضوع، وهو الجهة المؤهّلة للتشريع دون سواه. كما يعني تجنّب أيّ نوع من العبوديّة والتسليم لغير ذاته المقدّسة. والتوحيد الأفعاليّ: هو الإيمان بأنّ الله هو المؤثّر الحقيقيّ في العالم (لا مؤثّر في الوجود إلا الله). ولا يكفي الإقرار بهذه الأمور فقط، بل يجب أن يتطابق الإيمان والاعتقاد القلبيّ مع العمل أيضًا، فلا يجوز أن نُعلن بألسنتنا أو نُضمر في قلوبنا بأنّ الله وحده أهل للعبادة والطاعة، بينما جوارحنا وأعمالنا تنطق بغير ذلك، من العبوديّة والطاعة لغيره سبحانه جلّ شأنه، مهما كان هذا الغير شرقًا أم غربًا، مالًا أم ذهبًا، جاهًا أم مقامًا، بل لا نُطيع أحدًا من الخلق حتّى لو نبيًّا لولا أنّ الله يأمر بطاعته أو يأذن بها بالحدّ الأدنى، وهذا موقفنا من رسول الله ﷺ، فإنّنا نُطيعه لأنّ طاعته طاعة لله سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾[1]. والأمر عينه يُقال في حقّ الآباء والأمّهات، فإنّنا نُطيعهم في الحدود التي أمر الله بطاعتهم فيها أو أجاز لنا ذلك، ومع هذا الأمر أو الإذن تكون

(١) سورة النساء: الآية ٨٠.

طاعتهم طاعة لله ورسوله.

فالإنسان - بحكم العقل - يجب أن يتقبّل عبودية الله تعالى وحده؛ لأنّ الإنسان يعشق الكمال بفطرته، ويحتاج إلى الرشد والتربية والهداية، والله تعالى وحده الجامع لجميع الكمالات، والخالق لجميع الكائنات والموجودات، فإن كنّا بحاجة إلى المحبّة والرحمة، فهو الرحمن الرحيم، وإن كنّا نخشى على مستقبلنا، فهو مالك ذلك اليوم، وصاحب الإرادة والمشيئة المطلقة، إذًا، لماذا نتوجّه إلى غير الله عزّ وجلّ ونطلب العون منه؟

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: يعني أنّي مع الجماعة لكن قلبي متعلّقٌ بك لا بسواك، فلا أتنحّى جانبًا ولا أعتزل الجماعة ولا أترك المجتمع فأنسى خلقك، ولكن في الوقت عينه لا أذوب في المجتمع وأترك الخالق، بل أعلم أنّ المسير يعبر من الخلق نحو الخالق.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: وهذا المقطع من الآية يُفيد أنّه وعلى الرغم من العبادة والتوجّه إلى الله وعلى الرغم من الانتماء إلى الجماعة، فإنّنا يا ربّ نستخدم في عبادتنا الوسائل والجوارح التي أتَحتَ لنا استخدامها، ولكنّنا في الوقت نفسه نعلم أنّ الأسباب والمؤثّرات كلّها بيد الله سبحانه فهو السبب الأوّل والمؤثّر الأول، وهو القادر على تعطيل الأسباب كلّها. فإرادتك يا ربّ هي الحاكمة على الخلق، وفي جميع القوانين، والطبيعة محكومة لإرادتك. وهذا لا يعني إنكار عالم الأسباب، وتجاهل المسبّبات، بل يعني الإيمان

بأنّ تأثير الأسباب، إنّما كان بأمر الله عزّ وجلّ، فالله سبحانه هو الذي يمنح النار خاصية الإحراق، والشمس خاصية الإنارة، والماء خاصية الإحياء.

وهذا أعلى درجات الإخلاص في إعلان العبادة فإيّاك نعبد تعني التوجّه بالعبادة إلى الله وحده دون سواه والإقرار بين يديه بأنّه وحده يستحقّ العبادة فلا الخوف هو الذي يدعونا إلى العبادة ولا الطمع، بل الحبّ وأهليّة الله للعبادة دون أيّ شيء آخر. وبعد إعلان العبادة يأتي دور الاعتراف بأنّ المؤمن وإن كان يعبد الله إلا أنّه حتّى في عبادته مهما كانت درجة خلوصها هو يستعين بالله على أداء حقوقه عزّ وجلّ. وهذا تجسيم للمبدأ الاعتقادي الذي يقول: **«لا جبر ولا تفويض»**. فنحن نعبد بإرادتنا واختيارنا، ولكنّنا نستعين بالله على ما يصدر منّا من عبادة فلولا عون الله لما استطعنا أداء حقّ العبادة.

إيّاك نعبد وإيّاك نستعين: يعني أن نُقيم الصلاة جماعة؛ مسلمين، صفًّا واحدًا، إخوة، متّحدين، متضامنين، ومتكاتفين.

إيّاك نعبد: يعني يا إلهي أراك حاضرًا وإليّ ناظرًا، لذا أقول: **«إيّاك»**، وهو ضمير المخاطَب وليس ضمير الغائِب. فإنّ العبد الذي يرى نفسه في محضر الله تعالى وبين يديه فإنّ نصيبه من الربح الإلهي يكون أسرع وأكبر.

سورة الحمد تتحدّث مع الله تعالى - منذ البداية - بصيغة

الغائب، لكن هنا يتحوّل الأسلوب من الغيبة إلى الحضور واستخدام صيغة المخاطَب، خطاب مع الله تعالى «إيّاك». في البداية نتعرّف إلى صفات الله عزّ شأنه، لكن هنا نصل إلى ذات الله تعالى «إيّاك». وليس الأمر لمرّة واحدة، بل تتكرّر «إيّاك» أكثر من مرّة؛ لأنّ للخطاب مع المحبوب حلاوة خاصة. من هنا، فإنّ العروج الروحيّ والمعنويّ له مراحل، ففي بداية السورة حمد وثناء، وفي «إيّاك نعبد» علاقة وارتباط، وفي «إيّاك نستعين» دعاء وطلب مساعدة، وبذلك تكون المراحل: ثناء، وارتباط، ودعاء.

صحيح أنّ العبادة من طرفنا نحن البشر، غير أنّنا نحتاج في العبادة إلى عونك ومددك: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1]، فلولا المولى تعالى ما اهتدينا.

على الرغم من أنّنا نستعين بالله سبحانه ونطلب العون منه تعالى، لكن لا إشكال في طلب العون من غيره ما دام ذلك برضاه، مثلما يستعين الإنسان باستعداداته ومواهبه وفكره وقوّته، وهذا لا ينافي التوحيد، فالله تعالى يأمرنا بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[2]؛ لأنّ الحياة بلا تعاون ومساعدة غير ممكنة. ورد عن الإمام عليّ عليه السلام: قلت: اللهم لا تحوجني إلى أحد من خلقك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا عليّ لا تقولنّ هكذا فليس من أحدٍ إلا وهو

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٣.
(٢) سورة المائدة: الآية ٢.

محتاج إلى الناس، قال: فقلت: كيف يا رسول الله، قال: قل: اللهم لا تحوجني إلى شرار خلقك، قلت: يا رسول الله ومن شرار خلقه؟ قال: الذين إذا أُعطوا منعوا، وإذا مُنِعوا عابوا[1].

من يقول: «**إياك نعبد**» صادقًا، لا تتسرّب إلى نفسه أوهام العجب وروح التكبّر والغرور والأنانية، ويكون في المقابل خاضعًا لتعاليم الله سبحانه، ومطيعًا لأوامره، فيظهر أكبر وأفضل تذلّل في محضره؛ لأنّه يعلم أنّ الله الواحد يمنحه أعظم لطف وأكبر نعمة ورحمة، مثل العبد المطيع في مقابل مولاه، مثل العبد الكامل العبوديّة في مقابل مولى كامل المولويّة لا يحدّ ولايته حدّ، يقول خاضعًا خاشعًا في محضره: «**أنا عبدك وأنت مولاي**» ليس عندي من أحد سواك؛ فكلمة «**إيّاك**» تدلّ على الحصر، أي أنت دون سواك. أمّا أنت فتملك غيري الكثير الكثير، وكل الوجود لك، ذليل أمامك، مملوك لإرادتك، وفي قبضتك، فأنت لست محتاجًا إلى عبادتي، غير أنّي غارق في الحاجة إليك، وما عبادتي سوى مظهر من مظاهر الحاجة، فأنا رهين لطفك، وأطلب العون دائماً منك.

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: قافلة الوجود في حركة مستمرّة إلى الله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[2]، والإنسان أيضًا في جهد وحركة

(١) بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣٢٥.
(٢) سورة المائدة: الآية ١٨.

دائمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1]، وفي كلّ حركة يوجد خطٌّ مستقيم واحد فقط، أمّا باقي الطرق والخطوط فهي منحرفة، والإسلام الحنيف عيّن لهذه الحركة طريقًا ودليلًا أيضاً، فحدّد المقصد وعيّنه وجعل وسيلة الحركة في اختيار الإنسان، فنحن البشر علينا أن نختار أي طريق نسلك.

لقد جعل الله تعالى في عمق روح الإنسان وفطرته ميلًا إلى الرشد والكمال، وطلب الحقّ والبحث عنه، فإذا تطوّر هذا الميل وترعرعت هذه الرغبة في ظلّ تعاليم الأنبياء، فإنّ الله عزّ وجلّ يولي الإنسان عنايةً خاصّةً: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[2]. على أنّ القرآن الكريم قد طرح نوعين من الهداية، هداية تكوينية نظير هداية النحل؛ إذ علّمه الله وهداه إلى جمع الرحيق من الأزهار وتحويله إلى عسلٍ. وهداية تشريعية تختصّ بالإنسان، وهي إرشادات الأنبياء وتعاليمهم الإلهية.

ما هو الصراط المستقيم؟

كلمة الصراط التي تكرّرت في القرآن الكريم أكثر من أربعين مرّة تعني الطريق السويّ الواضح والواسع. في حياة البشر توجد طرق عدّة، وعلى الإنسان أن يختار إحدى هذه الطرق؛ فهناك طريق هوس النفس، وطريق أهواء الناس، وطريق الطاغوت، وطريق الآباء

(١) سورة الانشقاق: الآية ٦.

(٢) سورة محمد: الآية ١٧.

والأجداد التي يحكمها التعصّب القومي والعرقي، وطريق وساوس الشيطان، وهناك طرق أخرى لم تُجرّب، وهناك طريق الله تعالى وطريق أوليائه؛ ومن الطبيعيّ أن يختار الإنسان الذي يعتقد بالله سبحانه ويؤمن به طريق الله عزّ وجلّ وطريق أوليائه، وينحرف عن الطرق الأخرى؛ لأنّ هذا الطريق يمتاز بميّزات ليست موجودة في غيره من الطرق والسبل:

- هو الخطّ المستقيم الأوحد الذي يُشكِّل أقصر طريق بين نقطتين، لذلك فهو أقرب الطرق للوصول إلى المقصد.
- هو الخطّ الإلهي الثابت، خلافًا لبقية الطرق التي تتغيّر وتتبدّل تبعًا لأهواء النفس.
- هو الطريق المستقيم وهو طريق واحد لا أكثر؛ لأنّه لا يوجد بين نقطتين أكثر من خطّ مستقيمٍ واحدٍ، أمّا الطرق الأخرى فهي متعدِّدة.
- هو الطريق الآمن من كلّ خطر، خلافًا للطرق الأخرى التي يتعرّض فيها الإنسان إلى المخاطر والمهالك والسقوط.
- هو الطريق الذي يوصل الإنسان إلى المقصد، أي إلى رضا الله تعالى، فلا خسران، ولا انكسار فيه.
- الطريق المستقيم هو طريق الله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

(١) سورة هود: الآية ٥٦.

- الطريق المستقيم هو طريق الأنبياء: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].
- الطريق المستقيم هو طريق العبودية لله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[2].
- الطريق المستقيم هو التوكّل والاعتصام بالله عزّ شأنه: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

من هذا المنطلق، يجب على الإنسان تفويض أمره إلى الله تعالى، والاعتماد عليه، وطلب العون منه، سواء في اختيار الطريق أو متابعة السير فيه؛ ليثبت قدمه على الصراط المستقيم، فلا ينحرف عنه؛ تمامًا كالمصباح الكهربائي الذي يستمدّ نوره بصورةٍ دائمةٍ ومستمرّة من الطاقة التي يولّدها المصدر الأساس للنور، **«مولِّد الكهرباء»**، فلو انقطعت الطاقة انطفأ نور المصباح. لذلك، نجد أنّ الأنبياء والأئمة أيضًا- وليس فقط البشر العاديّون- يطلبون في صلواتهم الثبات على الصراط المستقيم. ليس هذا فحسب، بل على الإنسان أن يطلب من المولى تعالى أن يهديه ويثبته على الصراط المستقيم في جميع أموره، وليس في الصلاة فقط؛ في العمل، وفي الزواج، وفي اختيار الصديق، وفي التحصيل العلمي،

(١) سورة يس: الآيتان ٣- ٤.
(٢) سورة يس: الآية ٦١.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠١.

وفي كل آن وزمـان. فكم من إنسان يملك في الفكر عقائد حقّة وصحيحة؛ لكنّه في العمل يُخطىء وتزلّ قدمه فيسقط، والعكس صحيح.

- الطريق المستقيم هـو الاعـتـدال والوسطيّة. يقول مولى الموحّدين عليّ عليه السلام: «**اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطى هي الجادّة**»[1]. فالطريق المستقيم يعني تجنُّب أيّ نوع من الإفراط والتفريط؛ ليس إنكار الحقّ ولا الغلوّ في الحق، لا جبر ولا تفويض، لا الفرديّة ولا الذوبان في الجماعة وخسران الشخصيّة الخاصّة، لا نظري فقط ولا عملي فقط، لا التعلّق بالدنيا ولا الرهبنة، لا الغفلة عن الحقّ ولا الغفلة عن الخلق، لا عقل محض ولا عاطفة محض، لا تحريم الطيّبات ولا الغوص في الشهوات، لا بخل ولا إسراف، لا حسد ولا تملّق، لا خوف ولا تهوّر، لا ولا... بل سلوك طريق الوسطية والاعتدال، سواء في العقائد أو الأفكار أو العمل أو السلوك.

في السير على الصراط المستقيم يجب طلب المدد والعون من الله سبحانه دائمًا؛ لأنّ الصراط أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف، والإنسان معرَّض للسقوط في كلّ لحظة. إنّ من يعبر الصراط يوم القيامة هو الشخص الذي لم ينحرف عن الصراط المستقيم في

(١) بحار الأنوار، ج ٨٧، ص ٣.

الدنيا، سواء الانحرافات الفكرية والعملية والأخلاقية. ورد عن أبي عبد الله أنّ الصراط: «**هو الطريق إلى معرفة الله عزّ وجلّ. وهما صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، فأمّا الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنّم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة، فتردى في نار جهنم.**»[1].

وجاء في الحديث عن أئمة الهدى: «**والله نحن الصراط المستقيم**»[2]، فأهل البيت هم المثال والنموذج الواقعيّ والعملي للطريق المستقيم، هم الأسوة والقدوة في المسير في هذا الطريق، وهم القادة والسادة الذين أوجب الله طاعتهم. فمدرسة أهل البيت مدرسة الاعتدال، والأئمة عليهم السلام يوصوننا دائمًا بالاعتدال والوسطية، في جميع الشؤون الحياتية والأحوال المعيشية، في العمل والسلوك والعلم، في الانتقاد والإنفاق وإظهار العلاقة والمحبّة وغير ذلك. وقد وردت هذه الوصايا في باب «**الاقتصاد في العبادات**» في كتاب أصول الكافي.

هذه هي مدرسة أئمة الهدى، وهذا هو الطريق المستقيم، لكن أن يقول قائل بالجبر ثم ينسب جميع أفعاله إلى الله تعالى، وكأنّ

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص ٢٦.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج١، ص ٢٦.

الإنسان مسلوب الاختيار والإرادة في تعيين مصيره وليس له أيّ تأثير، وآخر يؤمن بالتفويض فيعدّ نفسه فعّالًا لما يشاء، بينما يرى يد الله مغلولة لا حول له ولا مشيئة، وواحد يضع القادة الإلهيّين في مستوى البشر العاديّين، وآخر يرفعهم إلى حدّ الربوبية والتألّه! وشخصٌ آخر يرى أنّ التوسّل بأولياء الله عليهم السلام وقراءة الزيارة شركًا بالله، وآخر يتوسّل حتّى بالشجرة والحجر! واحد لا يتحرّج من خروج زوجته من دون حجاب شبه عارية تعرض جسدها على الناس، وآخر من شدّة الغيرة يقفل باب داره على زوجته فلا يأذن لها بالخروج!... كلّ ذلك انحراف عن الصراط المستقيم، صراط الله القويم، بينما يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]. ويقول عزّ وجلّ في موضع آخر: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2].

في ما يلي نماذج من الآيات والروايات التي تؤكّد على جانب الاعتدال، وتنهى عن الإفراط والتفريط:

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[3]. الاعتدال في الطعام والشراب.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦١.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٣١.

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[1].

التأكيد على الإنفاق باعتدال.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ ...قَوَامًا ﴾[2]. لا بخل ولا إسراف في الإنفاق، هؤلاء هم المؤمنون.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[3].

الصلاة بصوت معتدل.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[4]. فالمؤمنون يتّصفون بالدفع والجذب، أشدّاء على الكفّار «دفع»، رحماء على المؤمنين «جذب».

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[5]. ارتباط مع الخالق، وارتباط مع المخلوق.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[6]. الإيمان والاعتقاد القلبي ضروري، كذلك العمل الصالح والسلوك الحسن.

يقول تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[7]. طاعة الوالدِّين ضرورية،

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٩.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٧.
(٣) سورة الإسراء: الآية ١١٠.
(٤) سورة الفتح: الآية ٢٩.
(٥) سورة البقرة: الآية ٤٣.
(٦) سورة البقرة: الآية ٨٢.
(٧) سورة البقرة: الآية ٨٣.

لكن إذا منعاك عن سبيل الله وأمراك بالشرك، ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾[1]. الطاعة هنا غير جائزة.

لا تمنعك الصداقة ولا القربة عن قول الحقّ وبيانه: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[2]. ولا تُبعدك العداوة والخصام عن سلوك العدل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾[3].

نقرأ في سيرة الإمام الحسين في ليلة العاشر من محرّم، أنّ الإمام عليه السلام كان يُناجي الله ويشحذ سيفه للحرب.

في الحج في يوم عرفة يبتهل الحجّاج إلى الله تعالى ويدعونه، لكن يوم العيد لا بدّ من الأضحية وإراقة الدم على مذبح الطاعة لله عزّ وجلّ ولإطعام القانع والمعترّ.

في ختام هذا البحث يجب القول إنّ الإسلام ليس دينًا ذا بعدٍ واحدٍ، بحيث يلزم التوجّه إلى جانبٍ واحدٍ وترك الجوانب الأخرى ونسيانها، بل يجب التوجُّه إلى جميع أبعادٍ وجود الإنسان في حدود الاعتدال، فلا إفراط ولا تفريط.

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين:

في هذه الآية يطلب المؤمنون المصلّون من الله تعالى الهداية إلى الطريق المستقيم، وهو طريق الذين أنعم الله عليهم بهدايته

(١) سورة العنكبوت: الآية ٨.
(٢) سورة النساء: الآية ١٣٥.
(٣) سورة المائدة: الآية ٨.

من الأنبياء والأولياء والصالحين، والله تعالى في الآية ٦٩ من سورة النساء، وفي الآية ٥٨ من سورة مريم يشير إلى هذه المجموعة التي أنعم عليها بالهداية، فيُبيّن لنا من هم وما هي صفاتهم. ففي سورة النساء آية ٦٩ يقول عزّ شأنه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾؛ هؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم: «**النبيون والصِّديقون والشهداء والصالحون**». فالمصلّي يقرأ في كلّ صلاة في سورة الحمد ويطلب من الله تعالى أن يجعله في خطّ هذه المجموعات الأربع: خطّ الأنبياء، وخطّ الصِّديقين، وخطّ الشهداء، وخطّ الصالحين، وهذا الطلب والرجاء بالسير على خطى هؤلاء الأنقياء الأتقياء يُجنّب الإنسان خطر الانحراف، ويمنعه من الضلال، ويبقي ذكر هؤلاء الأتقياء حيًّا في ذهن المصلّي، فينهض بمسؤوليته ويؤدّي رسالته في خطّ مستقيم.

من هم المغضوب عليهم، ومن هم الضالّين؟

يُبيّن لنا القرآن الكريم نماذج (أفرادًا وجماعات) ويُعرّفهم بعنوان مغضوب عليهم، يحكي عن أفراد أمثال: فرعون وقارون وأبي لهب، وأقوام أمثال: قوم عاد وثمود وبني إسرائيل. ونحن في كلّ صلاة ندعو الله ونطلب منه أن لا نكون في الاعتقاد والأخلاق والعمل أمثال هؤلاء الأفراد والجماعات، من الذين غضب الله

عليهم، واستحقّوا الغضب والعذاب الإلهي.

يحكي المولى تعالى قصّة بني إسرائيل وحياتهم في القرآن بصورة مفصّلة، ففي الوقت الذي كانوا فيه مفضَّلين على جميع الناس في عصرهم، قال تعالى: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1]؛ لكن بعد ذلك عندما انحرفوا وضلّوا وسلكوا طريقًا استحقّوا فيه غضب الله تعالى وقهره وعذابه، قال سبحانه: ﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾[2]. هذا التعبير والبيان بسبب تغيير سلوكهم وانحرافهم عن الصراط، فبعد هذا التفضيل انحرفوا عن جادّة الصواب، فحرّف علماؤهم تعاليم التوراة السماوية: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾[3]، وأخذ تُجَّارهم وأغنياؤهم بالربا وأكل الحرام ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا﴾[4]، أمّا عامة الناس فقد وهنوا وجبنوا وأعرضوا عن الجهاد والقتال مع موسى عليه السلام، فقالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[5]. هذه الانحرافات الفكرية والعملية كانت سبباً في أن يبتليهم الله تعالى، فيُسقطهم من أوج العزّة إلى قعر الذلّة.

لذلك، نحن في كلّ صلاة نطلب من المولى عزّ وجلّ أن لا نكون من أهل تحريف كتاب الله، ولا من أهل أكل الربا والحرام، ولا من أهل الفرار من الجهاد والقتال في سبيله، كذلك نطلب منه أن لا

(١) سورة البقرة: الآية ٤٧.
(٢) سورة البقرة: الآية ٦١.
(٣) سورة المائدة: الآية ١٣.
(٤) سورة النساء: الآية ١٦١.
(٥) سورة المائدة: الآية ٢٤.

نكون من أهل الضلال التائهين، الذين يميلون مع كلّ ريح، ومن غير هدف، فيضلّون في معرفة الحقّ. إنّ الضالّين ليسوا أمثال: ﴿ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾، فهم ليسوا في خط الأنبياء والصالحين، ولا هم أمثال: ﴿ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم﴾ الذين يصدّون عن سبيل الله، ويجهدون في العناد ومعاداة الحق، ويكنّون العداء للإسلام، بل هم أشخاص ضلّوا في طريق معرفة الحق، غير مبالين، وطلبوا الرفاه في العيش، مثلهم كمثل الأنعام، همّهم بطونهم وشهواتهم، لا يتألّمون لحق ولا يتنكّرون لباطل، فلا فرق لديهم من يكون الحاكم؛ الأنبياء أو الطواغيت، همّهم رفاهية العيش، والحياة الرغيدة، والراحة المادّية، لا فرق عندهم من يكون القائد والحاكم، هؤلاء هم الضالّون الذين لم يختاروا هدفًا محدّداً ولا طريقاً واضحاً.

على أنّ هذه الآية تعدّ مصداقًا كاملاً للتولّي والتبرّي، فالمؤمنون المصلّون يظهرون- في نهاية سورة الحمد- العشق والعلاقة والولاية للأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ويتبرؤون من المغضوب عليهم والضالين المنحرفين، وهذا الإظهار للتبرّي والنفور من المغضوب عليهم والضالّين في كلّ صلاة، هو الذي يبني المجتمع الإسلامي مجتمعًا مقاومًا مواجهًا لحكم هؤلاء، فالمولى تعالى يوصينا جميعاً: ﴿لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾[1].

(١) سورة الممتحنة: الآية ١٣.

سورة التوحيد

أهمّية سورة التوحيد:

بعد قراءة سورة الفاتحة يجب على المصلّي قراءة سورة أخرى من سور القرآن، ويمكن أن يختار المصلّي أيّ سورة من سور القرآن، ما عدا السور الأربع التي فيها سجدة واجبة والتي تُسمّى سور العزائم؛ لكن ورد في الأخبار والروايات ترجيح قراءة سورة التوحيد[1]، وتوصي بها بعد الحمد مرّة على الأقلّ في إحدى الركعات في الصلاة الواجبة في اليوم.

أمّا أهمّية هذه السورة، فهي تُعادل ثلث القرآن كما ورد في الروايات، لا بل تعدل ثلث التوراة والإنجيل والزبور. ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«من قرأ قل هو الله أحد مرّة فكأنما قرأ ثلث القرآن، ومن قرأها مرّتين فكأنّما قرأ ثلثي القرآن، ومن قرأها ثلاث مرّات فكأنّما قرأ القرآن كلّه»**[2]. كما يُستحبّ قراءتها بعد الصلاة في التعقيب، وقد ورد أنّه من قرأها جمع الله له خير الدنيا والآخرة

(١) يمكن مراجعة الروايات التي تتحدث عن فضيلة هذه السورة وأهميتها في تفسير البرهان، وتفسير نور الثقلين.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٠٠.

وغفر له ولوالديه[1].

على الرغم من أنّ سورة الإخلاص من قصار السور، غير أنّ مضامينها كبيرةٌ جدًّا، ومفاهيمها بليغة وعميقة؛ كما ورد عن الإمام السجّاد عليه السلام قوله: «إنّ الله عزّ وجلّ عَلم أنّه يكون في آخر الزمان أقوامٌ متعمّقون فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والآيات من سورة الحديد إلى قوله: ﴿...عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فمن رام وراء ذلك فقد هلك»[2].

ورد في شأن هذه السورة وعظمتها، عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «من قرأ قل هو الله أحد بينه وبين جبّار منعه الله منه بقراءته بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فإذا فعل ذلك رزقه الله خيره ومنعه شرّه»[3]. وعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قرأ قل هو الله أحد مرّة بورك عليه، ومن قرأها مرّتين بورك عليه وعلى أهله، فإن قرأها ثلاث مرّات بورك عليه وعلى أهله وعلى جميع جيرانه، فإن قرأها اثنتي عشرة مرّة بنى له اثنا عشر قصرًا في الجنّة وتقول الحفظة: انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا، فإن قرأها مئة مرّة كُفّر عنه ذنوب خمس وعشرين سنة ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها أربعمأة مرّة كُفّرت عنه ذنوب

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٠٠.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٠٠.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٠٠.

أربعمئة سنة، فإن قرأها ألف مرّة لم يمت حتى يرى مكانه من الجنة أو يُرى له»[1].

عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: **«إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلّى على سعد بن معاذ فقال: لقد وافى من الملائكة تسعون ألف ملك، وفيهم جبرائيل عليه السلام فقلت له: يا جبرائيل بما استحقّ صلواتك عليه؟ فقال: بقراءة قل هو الله أحد قائمًا وقاعدًا وراكبًا وماشيًا وذاهبًا وجائيًا»**[2].

جاء في سبب نزول هذه السورة أنّ اليهود والنصارى والمشركين سألوا النبيّ أنْ ينسب لهم ربّه ويصفه، فنزلت قل هو الله أحد؛ فهذه السورة بمنزلة التعريف بأوصاف الله تعالى وهويته.

قل هو اللّه أحد:

التوحيد هو الأساس لأصل جميع الأديان السماوية، وإنّما بُعث الأنبياء لإزالة الشرك والكفر وعبادة الأصنام ومحو آثارها، وإيقاظ الفطرة البشرية، ودعوة الناس إلى الواحد الأحد الصمد وعبادته. فالتوحيد هو روح جميع تعاليم الأنبياء، ليس فقط في الاعتقادات، بل في الأحكام والأخلاق التي هي قائمة على محور التوحيد أيضًا؛ فالتوحيد هو الحدّ الفاصل بين الإيمان والكفر، ولا يمكن الدخول إلى قلعة الإيمان من دون التوحيد: **«قولوا لا إله إلا**

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٠٠.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٠٠.

الله تُفلحوا»، وكلمة **« لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمِنَ مِنْ عذابي»**[1].

وتشتمل هذه السورة على عقيدة التوحيد بأرقى صورة؛ ولأجل ذلك سُمّيت بسورة التوحيد، توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الأفعال. وهي بالتالي ترفض الشرك مهما كان شكله سواء كان على شكل تثليث، أم على شكل شرك اليهود واعتقادهم بأنّ عزير ابن الله، أم على شكل عقيدة أهل الجاهليّة الذين كانوا يظنّون أنّ الملائكة بنات الله تعالى الله وتنزّه عن كلّ شريك.

التوحيد يعني خلوص الفكر والعمل من أيّ نوع من أنواع الشرك، أو الشريك، أو النظير لله تعالى، لا شرك نظريّ ولا رياء عملي، بل أن يكون الدافع والهدف فقط وفقط الله تعالى، والعمل نفسه أيضاً لله فحسب.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الله واحد لا ثاني له، ولا شبيه ولا مثيل له، ليس له أجزاء ولا أعضاء ولا تركيب في ذاته المقدّسة، ولا يحدّه حدٌّ ولا يقيّده قيد.

«قل هو الله أحد» تعني أنّه معبود فرد من جميع الجهات، وأحد في كل شيء، والبشر عاجزون عن درك ذاته، أمّا دليل وحدانيّته فيقول أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام وهو يوصيه:

(١) عيون اخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص ١٤٥.

«واعلم يا بنيّ أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه»[1].

دليل وحدانيّته أنّ الناس عندما يواجهون خطرًا ما يتوجّهون إلى نقطة واحدة، وتتعلّق قلوبهم بها، وهي النقطة الوحيدة التي تمنح الناس الأمل بالنجاة في مواقع الخطر، فالقلوب تتوجّه إليه تلقائياً في أوقات المحن.

دليل وحدانيّته ذلك الترابط العجيب في الكون، ذلك التناسق بين الأرض والسماء، فعندما ننظر إلى الكون الذي يُحيط بنا، نُلاحظ في البداية موجودات متفرِّقة... الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم وأنواع النباتات والحيوانات. وكلّما أنعمنا النظر، ألفينا مزيدًا من الترابط والانسجام بين أجزاء هذا العالم وذرّاته، وظهر لنا أنّه مجموعة واحدة تتحكّم فيها جميعًا قوانين واحدة.

إذا أعطينا عددًا من الرسّامين شكلاً ما أو صورة ليرسموها، فقلنا لـلأوّل مثلاً ارسم رأس ديك، وقلنا للثاني ارسم جسمه، وللثالث ارسم ذيله ورجليه، عندما نجمع صورهم نرى الاختلاف في التناسب والتناغم بين الصور، فيبدو لنا ديكًا غريب المظهر، فلا تناسب بين الرأس والبدن والرجلين في الحجم والشكل واللون.

(١) الإمام عليّ عليه السلام، نهج البلاغة، من وصيته لابنه المجتبى (قسم الرسائل، الرسالة ٣١).

انظر إلى عجيب خلق الله، انظر إلى التناسب والتناسق في الخلق؛ فالإنسان عندما يتنفّس يأخذ الأوكسيجين ويُعطي الكربون، بينما النباتات عكس ذلك، تأخذ الكربون وتُعطي الأوكسيجين، ليبقى الإنسان والموجودات الأخرى أحياء، وهذا التناغم هو رمز حياة الإنسان والنبات معًا.

هذا الانسجام ظاهر في جميع أبعاد الحياة والكون، فضعف الطفل وقلّة حيلته يُجبَر بمحبّة الوالدَين وعطفهما، ومشقّة النهار تُرفع بالراحة والنوم في الليل. انظر إلى ماء العين (الدمع)، فهو مالح كي يغسل العين ويجلوها، وماء الفم عذب لكي يمضغ الطعام في الفم فيهضم، انظر إلى الطفل عندما يولد! من علّمه كيف يرضع ثدي أمّه؟ من وضع اللبن في صدر أمّه من قبل الولادة؟! فهيّأ له سبل الحياة، انظر إلى بعض الطيور في السماء، من جعل طعامها بين أسنان الحوت في قعر البحر؟ هو الله الواحد الذي قدّر لكلّ إنسان وحيوان وموجود ما هو المطلوب والمناسب.

يُنقَل أنّ أعرابيًّا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول أنّ الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابيّ أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسُّم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم، ثم قال: يا أعرابي، إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجلّ،

ووجهان يثبتان فيه، فأمّا اللذان لا يجوزان عليه، فقول القائل واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، ألا ترى أنّه كفر من قال: ثالث ثلاثة، وقول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز عليه لأنّه تشبيه وجلّ ربُّنا عن ذلك وتعالى، وأمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه، فقول القائل هو واحد ليس له في الأشياء شبيه كذلك ربُّنا، وقول القائل إنّه ربّنا عزّ وجلّ أحديّ المعنى يعني به أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربّنا عزّ وجلّ[1]. نعم، إنّ جهاد أتباع الحق ونضالهم في طول التاريخ، إنّما كان لأجل بقاء راية التوحيد عالية خفّاقة.

اللّه الصمد:

الصمد هو الذي لا يعتريه أيّ خلل ولا يطرأ عليه التغيير، ولكلمة صمد في اللغة أكثر من معنى فأحد المعاني هو الذي لا جوف له، وقيل الشيء المصمد هو الصلب الذي ليس فيه رخاوة، وقيل في تفسير كلمة صمد أيضًا: هو الذي يُصمد إليه بالحوائج أي يُقصد وتُطلب منه الحاجات. ومن لوازم بعض تفسيرات كلمة صمد أنّه تعالى شأنه ليس بمادّة ولا ماديّ، وليس بجسم فيُرى بالعين، وهو الذي تجري إرادته على الأشياء وفيها.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٧٠٩.

هو «الصمد» أي هو العزيز الذي لا يعتريه خلل من أيّ جهة، وكلّ عزّةٍ وقدرة ترجع إليه، كلّ شيء محتاج إليه ولا يحتاج إلى شيء.

هو «الصمد» أي هو الوجود الكامل، بل هو أتمّ الكمال، وجميع الموجودات تحتاج إلى لطف نظره لكي تصل إلى الكمال، فهو الأبديّ الأزليّ السرمديّ، لم يزل ولا يزال، كلّ الوجود يحتاجه ولا يحتاج في وجوده إلى شيء، هو الآمر وأمره فوق كلّ أمر، وإرادته حاكمة على الإرادات، لا تأخذه غفلة ولا نوم، لا يحتاج في أعماله إلى شريك.

هو «الصمد»، وبعبارة مختصرة هو «الغني ومقصد الحاجات».

قال الإمام عليّ عليه السلام تأويل الصمد: «لا اسم ولا جسم، ولا مثل ولا شبه، ولا صورة ولا تمثال، ولا حدّ ولا حدود، ولا موضع ولا مكان، ولا كيف ولا أين، ولا هنا ولا ثمة، ولا ملأ ولا خلأ، ولا قيام ولا قعود، ولا سكون ولا حركة، ولا ظلمانيّ ولا نورانيّ، ولا روحانيّ ولا نفسانيّ، ولا يخلو منه موضع، ولا على لون، ولا على خطر قلب، ولا على شم رائحة، منفيّ عنه هذه الأشياء»[1].

لم يلد ولم يولد:

اللّه تعالى خالق الموجودات وليس مولدها، فهو ليس من أب ولا له ابن، وهو منزّه عن عوارض المادّة، فالشيء يولّد شيئًا مثله،

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٣٠.

فالأمّ تلد طفلًا من جنسها؛ أي تولد بشراً مثلها، وهو منزّه عن ذلك، فلا شبيه له ولا نظير «**ليس كمثله شيء**»، بل يوجد المخلوقات من العدم إلى الوجود.

هذه الآية جاءت ردًّا على عقيدة من يؤمن بالتثليث، وبأنّ عيسى عليه السلام ابن الله، وعلى اليهود الذين يؤمنون أنّ عزيرًا ابن الله، وعلى مشركي العرب الذين كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات الله تعالى عمّا يصفون، جاءت لتقول لهم جميعاً: إنّ الله تعالى ليس له ولد (لا ذكر ولا أنثى)، ولم يولد فيكون له والد مقدّم عليه وأقدم منه، بل هو كما وصفه الإمام الحسين عليه السلام في الرسالة التي كتبها إلى أهل البصرة قال في تفسير: «**لم يلد ولم يولد**» لم يلد لم يخرج منه شيء كثيف كالولد وسائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين، ولا شيء لطيف كالنفس، ولا يتشعّب منه البداوات (الحالات المختلفة) كالسِّنَة والنوم، والخطرة والهم، والحزن والبهجة، والضحك والبكاء، والخوف والرجاء، والرغبة والسأمة، والجوع والشبع، تعالى أن يخرج منه شيء، وأن يتولّد منه شيء كثيف أو لطيف، ولم يولد لم يتولّد من شيء، ولم يخرج من شيء كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها كالشيء من الشيء والدابة من الدابة، والنبات من الأرض، والماء من الينابيع، والثمار من الأشجار، ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها، كالبصر من العين، والسمع من الأذن، والشم من الأنف، والذوق من الفم،

والكلام من اللسان، والمعرفة والتمييز من القلب، وكالنار من الحجر...»[1]. لذلك، فإنّ علاقة الله تعالى بالأشياء والمخلوقات ليست علاقة الأبوّة والبنوّة؛ بل علاقة الخلق والإيجاد من العدم.

ولم يكن له كفواً أحد:

ليس له شبيه ولا مثيل، فهو تبارك وتعالى لا شبيه له في ذاته، ولا نظير له في صفاته، ولا مثيل له في أفعاله، واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ ليس له كفؤٌ، ليس له ولدٌ ولا زوجٌ! هو الله الذي لا شريك له، فكيف للإنسان أن يتجرّأ ويجعل له من المخلوقين شريكًا، وهذا ظلم كبير في حقّ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾[2].

أيّها المصلّي! إنّ النعم التي تصلك من قِبَل الربّ سبحانه وحده، لا دخيل فيها ولا شريك لغيره، فلا تجعل لأعمالك هدفًا لأحد سواه، فكلّ البشر فقراء ضعفاء ومحتاجون مثلك، فكيف تعمل من أجل جلب اهتمامهم وكسب ودّهم ورضاهم، اعمل لله وفي سبيل كسب رضاه، فهو وحده المقتدر الذي ليس كمثله شيء، ولا يعتريه ضعف ولا نقص، هو الغني عن كلّ شيء.

في ختام الحديث عن هذه السورة المباركة نشير باختصار إلى أهمّ مضامينها السامية والعظيمة:

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٢٤.
(٢) سورة لقمان: الآية ١٣.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: هو واحدٌ بالذات والصفات؛ لذا فهو في العبودية واحد أحد أيضاً.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: هو الغني، الذي لا يحتاج إلى شيء، وكلّ الأشياء محتاجة إليه؛ فهو واحد أحد في الغنى وعدم الحاجة.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾: لا يوصف بتوليد المثل، فهو لم يلد مثله حتى يكون له شبيه ونظير.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾: هو أزليٌّ أبديٌّ ليس حادثًا حتى يوجد من شيء آخر، ولم يولد فيشبه من كان قبله.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾: لا شبيه له ولا مثيل له ولا نظير ولا شريك.

من هنا، فإنّ هذه السورة تسدّ كلّ معابر الانحراف والشرك والخرافات والأوهام والعقائد الباطلة المنحرفة عن ساحة قدسه سبحانه وتعالى، وتُقدّم لنا صورة التوحيد الربوبيّ الخالص. وقد ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام أنّ آيات هذه السورة بعضها يفسّر بعضها الآخر. وكأن هذه السورة تنسب لنا الله تعالى وتصفه على مراحل:

المرحلة الأولى: ﴿قُلْ هُوَ﴾: أي قل هو الله ربّي، الذي لا يناله عقل ولا يُدركه بصر، غائب عن العيون حاضر في القلوب. فكلّ التوجّه والالتفات في هذه المرحلة إلى الذات الإلهيّة وليس إلى الصفات، فإنّ الذّات بنفسها كافية لأن تكون محلًّا للحبّ والعبادة،

أي تقع موقع (المحبوبية والعبودية)، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**وكمال الإخلاص نفي الصفات عنه**»[1]. لذلك، من اللائق أن يعبد الله تعالى لأجل ذاته، لا بسبب النعم التي يتلطّف بها.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾: رمز التوجّه إليه من دون واسطة الآثار وصفات الألفاظ، وهذه المرحلة هامّة جدًّا؛ لأنّ التوجّه إلى هذه الآثار والصفات- أحيانًا- يُبعد الإنسان عن ذاته تعالى.

المرحلة الثانية: «**هو الله**» المعبود الذي له جميع الكمالات من جميع الوجوه، في هذه المرحلة اجتمعت الذات والصفات معًا، «**الله**» هو الذات التي تتّصف بجميع الصفات والأسماء الحسنى؛ لذلك هو أهل للعبادة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[2]. من هنا، فإنّ معرفة الله تعالى من خلال الصفات تأتي في المرحلة الثانية، فكلمة «**الله**» جامعةٌ لكلّ الصفات، والتوجّه إلى الله عزّ شأنه بواسطة الصفات يتجلّى في الدعاء- خصوصًا- دعاء الجوشن الكبير، حيث نقرأ في هذا الدعاء ألف صفة لله تعالى.

المرحلة الثالثة: «**أحد**»، أحدٌ في وحدانيّته. في هذه المرحلة نصل إلى التوحيد، توحيد الذات والصفات، فهو واحدٌ في الذات وواحدٌ في الصفات، متفرّدٌ لا مثيل له ولا نظير. واحدٌ ذاتًا وصفات،

(١) نهج البلاغة، خطبة التوحيد.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

أي أنّ صفاته لا تنفصل عن ذاته، ولا هي زائدة عن ذاته، هو «أحد» لا ثاني له ولا ثالث، وغير معدود ولا محدود.

وبين «أحد» و«واحد» فرقٌ في المعنى، فإنّ كلمة «أحد» تُطلق على الذات التي لا تقبل الكثرة لا في الخارج ولا في الذهن. ولذلك، لا تقبل العد ولا تدخل في زمرّة الأعداد، خلافًا للواحد الذي له ثانٍ وثالث في الخارج أو في الذهن. ولذلك نقول: لم يأتِ أحدٌ للدلالة على عدم مجيء أيّ إنسان، وإذا قلنا: لم يأتِ واحد فمن الممكن أن يكون قد جاء اثنان أو أكثر؛ لذلك، يُعبّر القرآن الكريم بكلمة «أحد» ولا يصف الله في هذه السورة بأنّه «واحد»؛ إذ يمكن أن يكون لكلمة «واحد» ثانٍ وثالث.

المرحلة الرابعة: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا يحتاج إلى غيره. في هذه المرحلة تتجلى صفة الصمد «الغني عن غيره»، كمحور للذات والصفات الإلهية بعنوان أهم الأوصاف الإلهية، على أنّ هذه الصفة لم تأتِ بصورة الخبر، فلم يقل «الله صمد»، بل جاءت بصورة الصفة والموصوف؛ لذلك تكرّرت لفظة الجلالة «الله»: «الله الصمد». فهو الله الواحد الأحد الغنيّ، وغيره متعدّدٌ ومتكثّرٌ وغارقٌ في الحاجة، فعيون جميع المحتاجين تتوجّه إليه وحده!.

المرحلة الخامسة: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، تفيد الروايات الواردة في تفسير هذه السورة أنّ هذا المقطع من السورة هو تفسير لصفة الصمد التي سبق أن

وُصِف الله بها. فهو الغنيّ عن غيره، فالله تعالى ليس محتاجًا إلى ولد فيلد، «**لم يلد**»، وليس محتاجًا إلى والد ووالدة فيولد «**ولم يولد**». وليس محتاجًا إلى زوجة ولا معاون ولا شريك ولا نظير كي يعاونوه في عمله، فلو كان «**يولد**» لم يكن أزليًّا، ولو كان «**يلد**» لم يكن أبديًّا؛ لأنه سوف يضمحل ويفنى ويحلّ ابنه محلّه كما في جميع الذين يلدون ذريّة من بعدهم، ولو كان له مثيل ونظير لكان له منافسٌ وكفؤٌ، والله منزّهٌ عن جميع هذه الأمور: «**سبحان الله عمّا يشركون**». ورد عن أمير الفصاحة والبلاغة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قوله: «**لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد: لم يلد فيكون مولودًا، ولم يولد فيصير محدودًا... ولا كفؤ له فيكافئه، ولا نظير له فيساويه**»[1].

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦.

الركوع والسجود

الركوع:

الركوع ركن من أركان الصلاة، والركن كما هو معلوم تبطل الصلاة بزيادته أو نقصه عمدًا أو سهوًا. وكلمة «ركعة» التي تستخدم في عدد ركعات الصلاة مشتقّة من الركوع. ورد أنّ قبيلة بني ثقيف طلبت من الرسول الأكرم ﷺ حين أمرهم بالصلاة أن لا يركعوا، فقالوا: لا تنحني فإنّ ذلك سبّة علينا، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا خير في دين ليس فيه ركوع أو سجود». فنزلت الآية الشريفة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾[1]. إنّ كثيرًا من الاشخاص ينحنون أمام بشرٍ أمثالهم ويعظّمونهم، لمجرّد أنّهم سلاطين، بينما المطلوب هو الانحناء والخضوع والتعظيم لله تعالى وحده.

ورد في الخبر أنّه عندما نزلت الآية الكريمة: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾[2]، قال رسول الله ﷺ للمسلمين اجعلوها في

(١) سورة المرسلات: الآية ٤٨. انظر: بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ١٠٠.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٧٤.

ركوعكم وقولوا: «سبحان ربّي العظيم وبحمده»[١].

جاء في الروايات أنّ الركوع علامة الأدب، وأنّ السجود علامة القرب، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لا يركع عبد الله ركوعًا على الحقيقة، إلا زيّنه الله بنور بهائه وأظلّه في ظلال كبريائه، وكساه كسوة أصفيائه، والركوع أول، والسجود ثانٍ، فمن أتى بمعنى الأوّل صلح للثاني، وفي الركوع أدب وفي السجود قرب، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب، فاركع ركوع خاشع لله بقلبه، متذلّل وَجِلٍ داخل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه، خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين»[٢]. والركوع طريق إلى التوبة والإنابة والاستغفار والاعتذار إلى الله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[٣].

آثار الركوع:

للركوع آثار روحيّة ومعنويّة، دنيوية وآخروية كثيرة، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «من أتمّ ركوعه وسجوده لم تدخله وحشة القبر»[٤]. وكلّما أكثر المصلّي ركوعه وسجوده لله تعالى كلّما ازدادت مقاومته للشيطان، فعن إمامنا الصادق عليه السلام أنّه قال:

(١) جامع أحاديث الشيعة، ج ٢، ص ٩٢٤.
(٢) بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ١٠٨.
(٣) سورة ص: الآية ٢٤.
(٤) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٩٢٨.

«...وعليكم بطول الركوع والسجود فإنّ أحدكم إذا أطال الركوع والسجود هتف إبليس من خلفه وقال يا ويلتا أطاعوا وعصيت وسجدوا وأبيت»[1].

ورد في الأحاديث الشريفة أنّ الله تعالى يُباهي ملائكته بالمؤمن الراكع، فيقول تعالى لملائكته يا ملائكتي أما ترون كيف تواضع لجلال عظمتي، أُشهدكم لأعظّمنه في دار كبريائي وجلالي[2]. أمّا آثار الركوع في الدنيا فإنّ طول الركوع يؤثّر في طول عمر الإنسان كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام[3].

آداب الركوع:

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه ركع وملأ كفيه من ركبتيه منفرجات وردّ ركبتيه إلى خلفه حتّى استوى ظهره، حتى لو صُبّ عليه قطرة من ماء أو دهن لم يزل لاستواء ظهره، ومدّ عنقه وغمض عينيه ثم سبّح...[4]. وسأل رجل أمير المؤمنين عليه السلام عن معنى مدّ العنق في الركوع فقال عليه السلام: **«تأويله آمنت بالله ولو ضُربت عنقي..»**[5]. عن أبي جعفر عليه السلام قال: **«إذا أردت أن تركع... وتصف في ركوعك بين قدميك تجعل بينهما قدر شبر، وتُمكّن**

(١) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٩٢٨.
(٢) انظر: جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٢٠٣.
(٣) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٩٢٨.
(٤) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٩٤٢؛ وانظر: جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٢٣٠.
(٥) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٩٤٢.

راحتيك من ركبتيك، وتضع يدك اليمنى على ركبتك اليمنى قبل اليسرى، وبلغ بأطراف أصابعك عين الركبة، وفرّج أصابعك إذا وضعتها على ركبتيك وأقم صلبك ومدّ عنقك وليكن نظرك بين قدميك...»[1]. ومن آداب الركوع أن يجنح بيديه إلى الخارج لا أن يضمّهما إلى البطن، ويستحبّ تكرار الذكر أثناء الركوع ثلاث مرّات كحدٍّ أقل[2]، والصلاة على محمّد وآل محمّد بعد قراءة الذكر.

ركوع أولياء اللّه:

عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: **«كان عليّ عليه السلام يركع فيسيل عرقه حتى يطأ في عرقه من طول قيامه»**[3]. ونقرأ في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة أنّ الله تعالى خلق ملائكة منهم راكعون دائمًا لا يقومون. ولا شكّ في أنّ الملائكة لا يتعبون ولا يجوعون، لذلك فإنّ الملائكة تُمجِّد الإنسان العاشق العارف الذي يُطيل في ركوعه. هذه هي حالة أولياء الله تعالى، أمّا نحن فكيف هو حالنا!! جاء في الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان جالسًا في المسجد، إذ دخل رجل فقام يُصلّي فلم يتمّ ركوعه ولا سجوده، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: نقرٌ كنقرِ الغراب لئن مات هذا

(١) المصدر نفسه.

(٢) للمزيد من مطالعة حول آداب الركوع، انظر: وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٩٢٠- ٩٤٣.

(٣) جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٢٠٠.

وهكذا صلاته ليموتن على غير ديني[1]. نسأل الله تعالى أن نكون من المصلّين الذين يؤدّون حقّ الصلاة.

السجود

تاريخ السجود: عندما خلق الله تعالى آدم عليه السلام أمر الملائكة أن يسجدوا له حيث قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[2]. إنّ ما جرى في قصّة خلق آدم، وسجود الملائكة له، واعتراض إبليس، وتكرار ذكره في القرآن، ليس من باب العبث؛ لأنّ تكرار الإشارة إلى شيء في القرآن الكريم له دلالاته وله حكمة وسبب، إنّه يقول للإنسان أيّها الإنسان الذي سجَدَت لك جميع الملائكة بأمري، لماذا تُعرض عن السجود لي وأنا خالق السجدة؟! أيّها الإنسان! لقد طردت إبليس بسبب تركه السجود لك، فما بالك تترك السجود لي؟ ماذا تنتظر؟؟... أيُّها الإنسان! إنّ إبليس الذي اعترض ولم يسجد لك، كانت حجّته

(١) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٩٢٢.

(٢) سورة الحجر: الآية ٢٨- ٣٥، بالتأكيد السجود لله تعالى فقط، والإنسان لم يكن سوى قبلة الملائكة، فكان سجودهم عبودية لله سبحانه.

أن قال أنا خير منه، أنا أفضل منه، خلقته من طين وخلقتني من نار! أمّا أنت الذي لم تكن شيئًا، وخُلقت من ضعف، وتموت ضعيفًا عاجزًا، فهل لك أن لا تسجد لي تكبّراً وغروراً؟

وعلى أيّ حال، إنّ ما أردنا بيانه هنا، هو أنّ أول أمر إلهي صدر بعد خلق الإنسان هو أمر السجود.

أهمية السجدة:

- السجدة هي أفضل وأعظم حالات الإنسان في مقابل المولى تعالى، وأقرب ما يكون العبد إلى الله سبحانه وهو ساجد، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[1].
- السجدة علامة أصحاب الرسول الأوفياء، والرجال الربّانيين الذين ترى آثار السجود في وجوههم وجباههم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[2].
- السجدة تحقّق تآلفًا وتناغمًا بين الإنسان وبين الوجود، فجميع الموجودات في الكون، وكلّ ما في السماوات والأرض خاضع ساجد لله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[3]، ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[4].
- السجدة تجعل الإنسان يتماهى مع الملائكة، فعن الإمام عليّ

(١) سورة العلق، الآية ١٩.
(٢) سورة الفتح: الآية ٢٩.
(٣) سورة النحل: الآية ٤٩.
(٤) سورة الرحمن: الآية ٦.

عليه السلام أنّه ليس من طبقة من السماء إلا وفيها طائفة من الملائكة هم ساجدون[1].

- السجدة أعلى درجات العبودية، فالإنسان يضع أعلى نقطة من جسده (الجبهة) على الأرض، ويعفّرها بالتراب تصاغرًا وتذلّلًا لعظمة الله تعالى وكبريائه.
- السجدة أسمى مقام لأفضل رجال العالمين ونسائهم، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو أكرم الخلق وأفضل الرسل قد أُمِر بالسجود، ليس فقط في النهار، بل حتى في الليل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلٗا﴾[2]. كذلك مريم عليها السلام التي هي أفضل نساء عصرها، فقد جاءها الخطاب الإلهي: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي ...﴾[3].
- السجدة مرحلة أكمل وأعلى مقامًا من الركوع، فهي تأتي بعده فتوصل المصلّي إلى أوج القرب والخضوع؛ لذلك ورد السجود والركوع في القرآن في سياقٍ واحد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾[4]، وكذلك: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾[5].

(١) انظر: نهج البلاغة، خ ٩١.
(٢) سورة الإنسان: الآية ٢٦.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٤٣.
(٤) سورة الحج: الآية ٧٧.
(٥) سورة الفتح: الآية ٢٩.

- السجدة رمز الإيمان بآيات الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ...﴾[1].
- سجدة الليل من علامات عباد الله الصالحين: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ... وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾[2].
- السجدة زينة الصلاة؛ لذلك يجب الإتيان بها بأحسن وجه، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه من صلّى وأحسن ركوعه وسجوده أعطاه الله تعالى جزاء سبعمائة صلاة من أمثالها، لا بل أضعاف ذلك[3].
- السجدة فخر المؤمن، فالله تعالى يُباهي بها الملائكة، ففي حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوصي به أبا ذر قال: «**يا أبا ذر إنّ ربّك عزّ وجلّ يُباهي الملائكة بثلاثة نفر... إلى أن قال: ورجل قام من الليل فصلّى فسجد ونام وهو ساجد فيقول الله تعالى: انظروا إلى عبدي روحه عندي في طاعتي ساجد**»[4]. وفي الخبر أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول وأقبل على أسامة بن زيد فقال: يا أسامة عليك بطريق الحق... إلى أن قال: يا أسامة عليك بالسجود فإنّه أقرب ما يكون العبد من ربّه إذا كان ساجدًا وما من عبد سجد لله سجدة إلا كتب الله

(١) سورة السجدة: الآية ١٥.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٣- ٦٤.
(٣) بحار الأنوار، ج٨٥، ص١٣٩.
(٤) جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٢٣٣.

له بها حسنة ومحا عنه بها سيّئة ورفع له بها درجة وباهى به ملائكته[١]. وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**لو يعلم المصلّي ما يغشاه من جلال الله ما سرّه أن يرفع رأسه من سجوده**»[٢].

- السجدة تمحو روح الأنانية والغرور، وتمحق روح التكبُّر عند الإنسان، فعن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**... والسجود على الأرض أفضل لأنّه أبلغ في التواضع والخضوع له تعالى...**»[٣]. وجاء في مسند أحمد بن حنبل أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليعرف أمته يوم القيامة من آثار السجود في جباههم[٤]. وفي الرواية: كان عليّ بن الحسين عليه السلام قاعداً في بيته إذ قرع قوم عليه الباب فقال يا جارية انظري من في الباب. فقالوا قوم من شيعتك، فوثب عجلًا حتّى كاد أن يقع، فلمّا فتح الباب ونظر إليهم فرجع، وقال: كذبوا فأين السمت في الوجوه أين أثر العبادة أين سيماء السجود، إنّما شيعتنا يُعرفون بعبادتهم وشعثهم قد قرحت منهم الآناف ودثرت الجباه والمساجد[٥]. وفي الخبر أنّ مواضع السجود في

(١) جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٢٢٦.
(٢) جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٢٢٦.
(٣) جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٢٥٨.
(٤) انظر: مسند أحمد، ج ٤، ص ١٨٩.
(٥) جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٢٣٢.

الدنيا تشهد للمصلّي يوم القيامة بأنّه كان من العابدين. وقال صلوات الله عليه: **«إنّ الأرض التي يسجد عليها المؤمن يُضيء نورها إلى السماء»**[١]، هذا مضافًا إلى أنّ طول الركوع والسجود يوجب بقاء النعمة وطول العمر كما مرّ في الحديث الشريف.

- السجدة تحطّ الذنوب وتوجب الجنة، ففي الحديث أنّه جاء رجل إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله كثرت ذنوبي وضعف عملي، فقال رسول الله ﷺ: أكثر السجود فإنّه يحطّ الذنوب كما تحطّ الريح ورق الشجر[٢]. وعن رسول الرحمة ﷺ في حديث طويل أنّه قال لرجل: **«...وإذا أردت أن يحشرك الله معي فأطل السجود بين يدي الواحد القهّار»**[٣]. وقال لرجل آخر يطلب الجنة: **«... يا عبد الله أعنّا بطول سجودك»**[٤].

ويكفي أن نعلم في أهمية السجود أنّ المولى تعالى طلب من رسوله العظيم إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٥].

---

(١) الشيخ النوري، مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ٤٨٥.
(٢) جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٢٢٧.
(٣) جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٢٢٧.
(٤) جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٢٢٧.
(٥) سورة الحج: الآية ٢٦.

في السجدة رموز وأسرار:

سُئل أمير المؤمنين عليه السلام عن معنى السجود، فقال: معناه منها خلقتني يعني من التراب ورفع رأسك من السجود معناه أخرجتني، والسجدة الثانية، وإليها تُعيدني، ورفع رأسك من السجدة الثانية ومنها تُخرجني تارة أخرى، ومعنى قوله سبحان ربّي الأعلى فسبحان أنفة للّه، وربّي خالقي، والأعلى أي علا وارتفع في سماواته، حتى صار العباد كلّهم دونه وقهرهم بعزّته، ومن عنده التدبير وإليه تعرج المعارج[1].

ويُبيّن الإمام الصادق عليه السلام علّة مكان موضع السجود، وعلّة عدم جواز السجود إلا على الأرض، أو على ما أنبتت الأرض، إلا ما أكل أو لبس فيقول عليه السلام: **«لأنّ السجود خضوع للّه عزّ وجلّ فلا ينبغي أن يكون على ما يؤكل أو يلبس، لأن أبناء الدنيا عبيد ما يأكلون ويلبسون والساجد في سجوده في عبادة اللّه عزّ وجلّ، فلا ينبغي أن يضع جبهته في سجوده على معبود أبناء الدنيا الذين اغترّوا بغرورها»**[2]. وفي كلام بليغ لأمير المؤمنين عليه السلام يظهر فيه فلسفة السجود، قال: السجود الجسماني: وضع عتائق الوجوه على التراب، واستقبال الأرض بالراحتين والركبتين، وأطراف القدمين، مع خشوع القلب وإخلاص النية. السجود النفساني فراغ

(١) بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ١٣٩.
(٢) جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٢٥٨.

القلب من الفانيات، والإقبال بكنه الهمّة على الباقيات، وخلع الكبر والحمية، وقطع العلائق الدنيوية، والتحلّي بالأخلاق النبوية[١].

ورد عن الإمـام الصادق عليه السلام: «**فاسجد سجود متواضع ذليل علم أنّه خُلق من تراب يطأه الخلق، وأنه رُكّب من نطفة يستقذرها كلّ أحد، وكون ولم يكن، وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرّب إليه بالقلب والسر والروح، فمن قرُب منه بعُد عن غيره، ألا ترى في الظاهر أنّه لا يستوي حال السجود إلا بالتواري عن جميع الأشياء، والاحتجاب عن كلّ ما تراه العيون، كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن، فمن كان قلبه متعلّقا في صلاته بشيء دون الله، فهو قريب من ذلك الشيء، بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته**»[٢].

أمّا علّة سجدة السهو لجبران ما سها به المصلّي من زيادة أو نقصان، فنقرأ في الحديث أنّ إبليس يُشتّت حواس المصلّي وذهنه أثناء الصلاة، فيوجد خللاً فيها، لذلك وجب على المصلّي أن يأتي بسجدتي السهو بعد الصلاة، ليمكن أنفه من الأرض ويمرغه بالتراب، ليعلم أنّ أيّ زلل أو سهو حاصل يجب أن يسجد لله تعالى ثانية[٣].

---

(١) مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ٤٨٦.

(٢) مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ٤٨٢ – ٤٨٣.

(٣) الوافي، ج٨، ص٩٩٢.

آداب السجدة:

في ما يأتي إشارة مختصرة إلى آداب السجود الواردة في الروايات[1]: إذا سجد المصلّي وضع يديه قبل ركبتيه وإذا أراد أن يقوم رفع ركبتيه قبل يديه. كذلك وضع الكفّين على الأرض مبسوطتين في مقابل الأذنين، ولا يلصق كوع يديه بالأرض؛ بل يجنح بمرفقيه ويتفتح كجناح الطائر، (أما المرأة فيستحبّ أن تضمّ نفسها إذا سجدت) وأن يُصيب أنفه ما يُصيب جبهته من التعفّر، وإذا جلس يجلس على يساره وليس على يمينه، بأن يضع ظاهر رجله اليمنى على باطن رجله اليسرى؛ لأنّ اليمين رمز الحقّ واليسرى رمز الباطل.

مضافًا إلى الذكر الواجب عند السجود، يُستحبّ أن يُصلّي على محمّد وآل محمّد ﷺ، وأن يدعو ويبكي من خشية الله تعالى، وإذا جلس من السجود كبّر ورفع يديه.

السجود على تربة كربلاء:

أشرنا من قبل إلى أنّه يُشترط في سجود الصلاة أن يكون على الأرض وما أنبتت بشرط أن لا يكون من المأكول والملبوس. وعليه يجوز السجود على التراب والحجر والخشب وغير ذلك ممّا يمكن عدّه من الأرض أو نباتها. هذا ولكنّ السجود على تربة الإمام

(١) انظر: وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٩٥٠ – ٩٨٠، حول آداب السجود.

الحسين عليه السلام له امتياز على جميع المواضع، فالإمام الصادق عليه السلام لم يكن يسجد إلا على تربة الإمام الحسين عليه السلام[1]. وقد ورد في الروايات أنّه يخرق الحجب السبع، ويُنير إلى الأرضين السبع[2]. والصلاة مع السجود على تربة الإمام الحسين عليه السلام مرفوعة ومقبولة، وترتقي بالمصلّي من قعر المادّيات وتصبغه بصبغة الجهاد ودماء الشهداء.

فالسجود على تربة الإمام الحسين عليه السلام يرمز إلى الجمع بين الصلاة والولاية، وبينها وبين الشهادة. وهو يعني تكريم ذكرى الشهادة وإعلاء قيمة الدماء التي بُذلت في سبيل الصلاة... السجود على تربة الإمام الحسين عليه السلام يعني أنّ كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء، يعني الجهاد ومقاومة الظلم، ويعني ترجيح الموت مع العزّ على الحياة مع الذلّ.

وإنّ مزار الإمام الحسين عليه السلام وبقعته روضة من رياض الجنة، وباب من أبوابها. فقد ورد في الروايات أنّ الدعاء تحت قبّته مستجابٌ عند الله تعالى، والصلاة في حرمه مقبولة. أمّا تربته ففيها الشفاء والأمان من كلّ خوف[3].

وفي معرض بيان ثواب التسبيح بسبحة من تربة الإمام الحسين، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**من أدار سبحة من تربة**

(١) مستدرك سفينة البحار، ص ٤٧٤.

(٢) انظر: الإمام الخميني، تحرير الوسيلة، ج ١، ص ١٤٩.

(٣) وسائل الشيعة، ج١٤، ص٥٣٧.

الإمام الحسين عليه السلام مرّة واحدة بالاستغفار أو غيره، كتب الله له سبعين مـرّة».[1] وعنه صلوات الله عليه أنّـه قـال: **«ومـن كان معه سبحة من طين قبر الحسين عليه السلام كُتب مسبّحًا وإن لم يُسبّح بهـا..»**[2] والأخبار الـواردة في فضل تربة الإمـام الحسين عليه السلام كثيرةٌ لا مجال لاستعراضها في هذا الكتاب. وأخيرًا لا بدّ من الإشارة إلى ورود روايات عدّة تؤكّد أنّ حدود ما يُسمّى بتربة الحسين عليه السلام هو أربعة أميال حول القبر من الجهات الأربع[3].

سجدة الشكر:

لا يختصّ السجود بالصلاة وحدها، بل هو عملٌ عباديٌّ مستقلٌّ، وقد يجب في بعض الحالات خارج إطار الصلاة، مثلاً يجب السجود عند تلاوة أو سماع آيات السجود من سور العزائم. والسجود في بعض الموارد مستحبٌّ ومنه ما يُعرف بسجود الشكر، فقد ورد في عدد من الروايات والأخبار عن أهل البيت عليهم السلام استحباب السجود عند تجدّد النعم على الإنسان. وهي من ألزم السنن وأهمّها، فقد ورد أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا جاءه أمر يسرّه أو بُشِّر به خرّ ساجدًا شكرًا لله تعالى[4].

(١) الشيخ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص ٣٠٢؛ وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٤٥٦.أختتتتت

(٢) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ١٧٤، باب ٤٠.

(٣) انظر: كامل الزيارات، باب ٨٩.

(٤) ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص٥٤٢. نقلا عن صحيح مسلم، ج١، ص٤٩٦.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا ذَكَر أحدكم نعمةَ الله عزّ وجلّ فليضع خدّه على التراب شاكرًا لله، وإن كان راكبًا فلينزل فليضع خدّه على التراب، وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خدّه على قربوسه، فإن لم يقدر فليضع خدّه على كفّه، ثم ليحمد الله على ما أنعم عليه»[1]. وعنه عليه السلام قال: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في سفر يسير على ناقة له، إذا نزل فسجد خمس سجدات فلمّا أن ركب قالوا: يا رسول الله إنا رأيناك صنعت شيئًا لم تصنعه؟ فقال نعم استقبلني جبرائيل عليه السلام فبشّرني ببشارات من الله عزّ وجلّ، فسجدت لله شكراً لكلّ بشرى سجدة»[2].

هذه الروايات وغيرها تظهر بوضوح أهمية سجدة الشكر، وأنّها سنة شريفة، فقد ورد عن صاحب العصر والزمان الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف في جوابه على رسالة بعثها إليه محمد بن عبد الله الحميري يسأله عن سجدة الشكر، قال: «سجدة الشكر من ألزم السنن وأوجبها»[3]. أمّا عن الذكر في هذه السجدة، فقد ذكر أنّ أيّ ذكر يجزي، غير أنّ الروايات أكّدت على ذكر «شكراً لله» و«الحمد لله»، مضافًا إلى طلب العفو والاستغفار، والشكر على نعمة الولاية والأنعام الإلهية الأخرى. جاء في الحديث القدسي أنّ من سجد

(١) وسائل الشيعة، ج ٧، ص ١٩.
(٢) الكافي، ج ٢، ص ٩٨.
(٣) جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٤٥٣.

لله شكراً شكره الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1].

والجدير ذكره أنّ سجدة الشكر ليس لها زمان ومكان خاص، غير أنّ أفضل أوقاتها بعد الصلاة الواجبة، يأتي بها المصلّي كتعقيب من تعقيبات الصلاة.

بركات سجدة الشكر:

ورد في الأحاديث والروايات أنّ لسجدة الشكر بركاتٍ وآثارًا عظيمة، نشير إلى بعضها باختصار:

من بركات سجدة الشكر أنّها تجبر النقص في الصلاة الواجبة في حال لم تجبر بالنوافل، وفيها رضا الرب، فعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**من سجد سجدة الشكر وهو متوضّئ، كتب الله له بها عشر صلوات ومحا عنه عشر خطايا عظام**»[2]. ومن آثار سجدة الشكر أنّها تُزيل الحجاب ما بين العبد والملائكة، والدعاء فيها مستجاب. قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يوصي بها أحد أصحابه: «**فلا تدعها فإنّ الدعاء فيها مستجاب**»[3].

ويكفي في بركات سجدة الشكر وعظمتها وقدرها أنّ الله تعالى يُباهي بها الملائكة، فعن أبي عبد الله عليه السلام في كلام جامع أنّه قال: «**سجدة الشكر واجبة على كلّ مسلم تتمّ بها صلاتك،**

(١) سورة إبراهيم: الآية ٧.
(٢) جامع أحاديث الشيعة، ج ٥، ص ٤٥٦.
(٣) بحار الأنوار، ج ٨٣، ص ١٩٥.

وتُرضي بها ربّك وتعجب الملائكة منك، وإنّ العبد إذا صلّى ثم سجد سجدة الشكر، فتح الرّب تعالى الحجاب بين العبد وبين الملائكة فيقول: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي أدّى فرضي وأتمّ عهدي ثم سجد لي شكرًا على ما أنعمت به عليه. ملائكتي! ماذا له؟ قال: فتقول الملائكة: يا ربّنا رحمتك، ثم يقول الربّ تبارك وتعالى: ثم ماذا له؟ فتقول الملائكة: يا ربّنا جنّتك، فيقول الربّ تبارك وتعالى: ثم ماذا؟ فتقول الملائكة: يا ربّنا كفاية مهمّه، فيقول الربّ تبارك وتعالى: ثم ماذا؟ قال: فلا يبقى شيء من الخير إلا قالته الملائكة، فيقول الله تبارك وتعالى: يا ملائكتي ثم ماذا له؟ فتقول الملائكة: يا ربّنا لا علم لنا. قال: فيقول الله تبارك وتعالى: أشكر له كما شكر لي، وأُقبل إليه بفضلي وأُريه وجهي»[1].

سجود أولياء اللّه:

ورد عن أبي عبد الله عليه السلام لِمَ اتّخذ الله إبراهيمَ خليلًا؟ قال: «لكثرة سجوده على الأرض»[2].

لمّا أراد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الهجرة إلى المدينة، بعدما عزم المشركون واجتمعوا على قتله، فدى أميرُ المؤمنين عليه السلام رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه، وبات على فراشه، في تلك الليلة سأل الإمام عليّ

(١) بحار الأنوار، ج ٨٣، ص ٢٠٥.
(٢) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١٠٧٤.

عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أوتسلم بمبيتي هناك يا نبيّ الله؟ قال: نعم» فتبسّم عليّ عليه السلام ضاحكًا وأهوى إلى الأرض ساجدًا فنام على فراش النبي[1] صلى الله عليه وآله وسلم.

جاء في الروايات أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أُتِي برأس أبي جهل سجد شكرًا لله[2]. وكان عليّ عليه السلام إذا سجد سجدة الشكر غشي عليه[3].

قال أبو جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام: «إنّ أبي- عليّ بن الحسين عليه السلام- ما ذكر لله عزّ وجلّ نعمةً عليه إلا سجد، ولا قرأ آية من كتاب الله عزّ وجلّ فيها سجود إلا سجد، ولا دفع الله عنه سوءًا يخشاه أو كيدَ كائدٍ إلا سجد، ولا فرغ من صلاة مفروضة إلا سجد، ولا وُفِّق لإصلاح بين اثنين إلا سجد، وكان أثر السجود في جميع مواضع سجوده فسُمِّي السجّاد لذلك»[4]. ويذكر أنّه عليه السلام كان يسقط منه كل سنة سبع ثفنات من مواضع سجوده لكثرة صلاته، وأنه كان يعرق لطول سجوده[5].

وقد ورد أنّ الإمام أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام كان يُصلّي نوافل الليل، ويصلها بصلاة الصبح، ثم يُعقّب حتى تطلع الشمس،

(١) الوافي، ج ٨، ص ٨٨٢.
(٢) جامع الأحاديث، ج ٥، ص ٤٧٥.
(٣) جامع الاحاديث، ج٥، ص٤٥٩.
(٤) وسائل الشيعة، ج ٧، ص ٢١.
(٥) جامع الأحاديث، ج ٥، ص ٢٢٩.

ويخرّ ساجدًا لله تعالى، فلا يرفع رأسه من الدعاء والتحميد حتى يقرب زوال الشمس[١].

بضع نقاط للتأمّل:

من بركات موضع السجود ما جاء على لسان أهل البيت عليهم السلام، فعن عليّ عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أراد الانصراف عن الصلاة مسح جبهته بيده اليمنى ثم يقول: **«اللهم لك الحمد لا إله إلا أنت عالم الغيب والشهادة اللهم أذهب عنّا الهمّ والحزن والفتن ما ظهر منها وما بطن»**. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«ما أحدٌ من أمّتي فعل ذلك إلا أعطاه الله عزّ وجلّ ما سأل»**[٢].

السجود لله شكرًا - بعد صلاة المغرب - فإنّ الدعاء فيها مستجابٌ[٣]. عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول لأصحابه من سجد بين الأذان والإقامة فقال في سجوده سجدت لك خاضعًا خاشعًا ذليلًا، يقول الله: ملائكتي وعزّتي وجلالي لأجعلنّ محبّته في قلوب عبادي المؤمنين وهيبته في قلوب المنافقين»**[٤].

السجود لله فقط، فلا ينبغي لأحدٍ أن يسجد لأحدٍ من دون الله،

(١) بحار الأنوار، ج ٨٣، ص ٢٣٠- ٢٣١.
(٢) جامع الأحاديث، ج ٥، ص ٤١٠.
(٣) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٩٨٦.
(٤) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٦٣٣٠.

ويخضع له كخضوعه لله، ويعظّمه بالسجود له كتعظيمه لله؛[١] حتى عند قبور الأئمة والأولياء عليهم السلام. لا يجوز السجود لغير الله، حتّى للنبي والأئمة عليهم السلام.

عندما هاجر المسلمون بقيادة جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة، لحق بهم المشركون بقيادة عمرو بن العاص، فلمّا حضروا بين يدي النجاشي ملك الحبشة، أقبل عمرو بن العاص وسجد بين يدي الملك؛ وأمّا جعفر بن أبي طالب فلم يسجد، بل قال للملك نحن المسلمون لا نسجد لأحد سوى الله تعالى[٢].

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: **«أمّا سجود يعقوب وولده فإنّه لم يكن ليوسف إنّما كان ذلك منهم طاعة لله وتحية ليوسف، كما كان السجود من الملائكة لآدم، ولم يكن لآدم إنّما كان ذلك منهم طاعة لله وتحية لآدم. فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكرًا لله لاجتماع شملهم ألا ترى أنّه يقول في شكره في ذلك الوقت ربّ قد آتيتني من الملك»**[٣]. وعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لم يكن سجودهم يعني الملائكة لآدم إنّما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه لله عزّ وجلّ»**[٤].

(١) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٦٨٦.
(٢) انظر: مسند أحمد، ج ١، ص ٤٦١؛ وابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٦، ص ١٢٦.
(٣) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٩٨٦.
(٤) المصدر نفسه.

ذكر التسبيح

سبحان اللّه:

يُسبّح المصلّي اللّه تعالى في ركوعه وسجوده. والتسبيح هو قولك: «**سبحان ربّي العظيم وبحمده**» في الركوع، وقولك: «**سبحان ربّي الأعلى وبحمده**» في السجود. وقد ورد أنّه لمّا نزلت الآية: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] قال رسول اللّه ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**»، فلمّا نزلت الآية: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[2] قال ﷺ: اجعلوها في سجودكم[3].

مقام التسبيح:

التسبيح أصل جميع العقائد والأفكار الإسلامية الصحيحة؛ فالتوحيد يعني تنزيه اللّه تعالى عن الشريك: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4]، والعدل يعني تنزيه اللّه عزّ وجلّ عن الظلم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[5]، والنبوّة والإمامة تعني تنزيه اللّه عزّ وجلّ

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٤.
(٢) سورة الأعلى: الآية ١.
(٣) انظر: مستدرك الوسائل، ج ١، ص ٢٢٥. والميزان في تفسير القرآن، ج ١٩، ص ١٦٠.
(٤) سورة الطور: الآية ٤٣.
(٥) سورة القلم: الآية ٢٩.

عن العبثيّة وتنزيهه تعالى عن أن ترك الناس سدى، دون أنّ يُنظِّم لهم البرنامج ويضع لهم القوانين، فيضلّوا ويغرقوا في بحر الأهواء والأذواق: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾[1].

أمّا المعاد فيعني تنزيه الله سبحانه عن أن يكون خلقه باطلًا وعبثًا، وأنّ نهاية العالم العدم: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ...﴾[2]، و﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[3]. فالتسبيح ليس منبع العقائد الإسلامية فحسب، بل أصل الكثير من الكمالات الروحية والمعنوية.

سبحان اللّه:

منبع رضا الإنسان بما يصدر عن الله تعالى، فإذا نزّه العبد ربّه عن كلّ نقصٍ وعيبٍ، فإنّه سوف يرضى بقضاء الله تعالى، ويُسلِّم لمشيئته الحكيمة.

سبحان اللّه:

منبع التوكّل، فإذا نفى العبد عن المولى عزّ وجلّ كلّ حاجة، ونزّهه عن كلّ ضعف وعجز، فلماذا لا يتوكّل عليه في أموره كلّها،

(١) سورة الأنعام: الآية ٩١.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩١.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ١١٥.

ويعتمد عليه في جميع حاجاته وشؤونه؟: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[1].

سبحان اللّه:

أصل الحبّ للّه تعالى؛ لأنّ الذات المنزّهة عن العيب والنقص، والمطهّرة من كلّ رجس، هي محبوبة الإنسان ومعشوقه.

سبحان اللّه:

مقدّمة الحمد والثناء، ثناء على الذات التي لا يُداخلها قبحٌ ولا نفورٌ، لذلك جاءت عبارة «**سبحان الله**» في التسبيحات الأربع مقدّمة على «**الحمد لله**».

سبحان اللّه:

مفتاح النجاة من جميع الخرافات والأوهام والانحرافات البشرية: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2]. ولعلّه لهذه الأسباب، ورد في القرآن الكريم الأمر بتسبيح اللّه تعالى أكثر من الأذكار الأخرى، فقد ورد الأمر بالتسبيح (١٦ مرّة)، والاستغفار (٨ مرّات)، وذكر اللّه (٥ مرّات)، والتكبير (مرّتان). على أنّ الأمر بالتسبيح ورد في كلّ آن وزمان وعلى كلّ حال؛ ليتوجّه العبد- دائمًا- إلى اللّه المتعال، وينزّهه عن كلّ عيب ونقص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا

(١) سورة يونس: الآية ٦٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ...﴾[1]. سبّح ربّك عند النصر، وفي أوقات الفرح والسرور: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾[2]. سبّح ربّك في أوقات الشدّة والعسر والبلاء: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[3].

لا يمكن للإنسان معرفة الله سبحانه حقًّا، لأنّه محدودٌ من جميع الجهات؛ لذلك من الأفضل أن يقرّ بضعفه، ويقول: إلهي أنت المنزّه عن أن يصل إليك فكر أو خيال، وأعلى وأعظم ممّا يصفك به الواصفون: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[4] إلا عبادك المخلَصين، الذين تمكّنوا من وصفك بعدما جاءهم العون والمدد الإلهي: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[5]، وصفوه عن علم ومعرفة ودراية بما يليق بذاته المقدّسة.

ثواب التسبيح:

أحبّ الكلام إلى الله تعالى التسبيح، فعن رسول الرحمة محمد ﷺ في جزاء التسبيح قال: **«إذا قال العبد سبحان الله سبّح معه ما دون العرش فيُعطى قائلها عشر أمثالها، وإذا قال الحمد لله**

(١) سورة طه: الآية ١٣٠.
(٢) سورة النصر، الآيات ١ – ٣.
(٣) سورة الصافات: الآيتان ١٤٣– ١٤٤.
(٤) سورة الإسراء: الآية ٤٣.
(٥) سورة الصافات: الآية ١٥٩– ١٦٠.

أنعم الله عليه بنعم الدنيا موصولًا بنعم الآخرة»[١]. على أنّ الروايات في ثواب التسبيح كثيرةٌ، ومن أراد التوسّع يُمكنه مراجعة كتب الأحاديث والأخبار[٢].

لا شكّ في أنّ للتسبيح جزاءً وآثارًا في الدنيا أيضًا، وقد بيّنتها الروايات. قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه ذات يوم: أرأيتم لو جمعتم ما عندكم من الثياب والآنية ثمّ وضعتم بعضه على بعض ترونه يبلغ السماء؟ قالوا: لا يا رسول الله، فقال: يقول أحدكم إذا فرغ من صلاته (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) ثلاثين مرّة، وهنّ يدفعن الهدم والغرق والحرق والتردّي في البئر وأكل السبع وميتة السوء والبليّة التي نزلت على العبد في ذلك اليوم»[٣].

التسبيح العمليّ:

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «ما ابتُلي المؤمن بشيء أشدّ عليه من ثلاث خصال يحرمها، قيل: وما هي؟ قال: المواساة في ذات يده، والإنصاف من نفسه، وذكر الله كثيرًا، أما إنّي لا أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولكن ذكر الله عندما أحلّ له وذكر الله عندما حرّم عليه»[٤].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١٢٠٧.

(٢) انظر: الوسائل، الكافي وغيرهما.

(٣) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ٢، ص ١٠٧.

(٤) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٨٧.

تكرار التسبيح:

جاء في الخبر أنّ رجلًا دخل على الإمام الصادق عليه السلام وهو يُصلّي، وهو مشغول بتسبيح الله عزّ وجلّ في حالة الركوع، فعدّ له في الركوع والسجود ستّين تسبيحة[1]، وكان إذا سجد عليه السلام سبّح خمسمئة مرّة. وتكرار التسبيح ليس فقط في الصلاة، بل وفي مناسك الحج أيضًا، أثناء النظر إلى الحجر الأسود، وعند السعي بين الصفا والمروة، وفي موارد ومواضع أخرى كثيرة.

مضافًا إلى الذكر في الركوع والسجود، تتكرّر التسبيحات الأربع أيضًا في الركعتين الثالثة والرابعة: «**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر**». وبناءً للروايات التي وردت من السنة والشيعة، فإنّ المراد من «**الباقيات الصالحات**» الواردة في الآية: ٤٦ من سورة الكهف هي هذه التسبيحات الأربع[2]. وعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام عندما كان يبني الكعبة كان ذكره: «**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر**»[3].

ذكر اللّه في ثقافة الآباء والأبناء:

من المناسب في هذا المجال إلقاء نظرة على مكانة «**ذكر الله**» في ثقافة الآباء والأجداد الإسلامية، وقيمة هذا الذكر لديهم، وتقييمه:

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٣٠٤.

(٢) انظر: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣١٩.

(٣) انظر: وسائل الشيعة.

كان آباؤنا وأمّهاتنا إذا تعجّبوا قالوا: «**ما شاء الله**» و«**سبحان الله**»، وعندما يدخلون إلى البيت يقولون: «**يا الله**» و«**بسم الله**»، وعند اللقاء: «**حيّاك الله**» وعند الوداع: «**في أمان الله**»، فإذا قاموا قالوا: «**يا الله**» و«**يا عليّ**»، ولرفع التعب يقولون: «**عافاك الله**»، أما في الجواب عن السؤال عن الحال، فكانوا يقولون: «**الحمد لله**» وعند بدء الطعام أو الشراب: «**بسم الله**»، وعند الانتهاء من الطعام: «**الحمد لله**» و«الشكر لله». وكانت الجدّة تبدأ قصتها: «**كان يا ما كان في قديم الزمان، يوم لم يكن ملكٌ إلا الله**». إلى غير ذلك من الأذكار التي ترد على ألسنة الآباء والأجداد ممّا يصعب حصره في مثل هذا الكتاب.

من هنا، يظهر لنا أنّ التربية في هذه الأحضان، كانت على الدوام على ذكر الله تعالى، وذكره وتسبيحه دائم الجريان على الألسن؛ لكن إذا نظرنا إلى أيامنا الحاضرة ووضعنا الحاليّ، نجد أنّ الثقافة الغربيّة قد نفذت إلى مجتمعاتنا، وغيّرت أحوالنا وأذكارنا وألسنتنا، وبدّلتها من الثقافة الإسلامية إلى ثقافة الغرب الفاسدة، ولا داعي لذكر المصطلحات الغربية التي انتشرت في مجتمعنا، خصوصاً المصطلحات الأجنبيّة، إضافة إلى ثقافة اللباس والمأكل والمشرب أيضاً، وحتى شكل قصة الشعر... نسأل الله تعالى أن تعود ثقافتنا الإسلاميّة بأفضل حالٍ وأفضل لسان في ظلّ الصحوة الإسلامية والثورة المباركة في إيران.

تسبيح الموجودات:

كلّ الوجود يُسبّح لله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[1] سواء من ذوات الأرواح كالطير، أوالجماد كالجبال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾[2] و﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ..﴾[3]. وجميع هذه الموجودات تُسبّح من منطلق الشعور والإدراك: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[4]. كذلك الملائكة، تُسبِّح الله أكثر من أي مخلوقٍ آخر؛ فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**والذي نفسي بيده الملائكة في السماوات أكثر من التراب في الأرض، وما في السماء موضع قدم إلا وفيه ملك يُسبّح الله ويُقدّسه، وما في الأرض شجرة ولا عود إلا وفيه ملك موكّل يأتي الله بعلمها وهو أعلم بها، وما منهم أحد إلا ويتقرّب بولايتنا أهل البيت ويستغفر لمحبّينا ويلعن أعداءنا ويسأل الله أن يُرسل عليهم من العذاب إرسالاً**»[5].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في حديث يذكر فيه قصة داود عليه السلام: «**خرج يقرأ الزبور، وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل**

(١) سورة الجمعة: الآية ١.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.
(٣) سورة الرعد: الآية ١٣.
(٤) سورة النور: الآية ٤١.
(٥) تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٥٥.

ولا حجر ولا طائر إلا جاوبه»[١]. وجاء في الحديث أنّ رسول الله ﷺ نهى عن أن توسم البهائم في وجوهها، وأن تُضرب في وجوهها لأنّها تُسبِّح بحمد ربّها[٢].

- إن كنت غائبًا عن العيون فإنّ ذرّات العالم تُناجيك
- فمنطق الماء والتراب والطين تُدركه حواسّ أهل القلوب
- إنّ جميع ذرّات العالم تقول لك بصوت خافت، وعلى الدوام
- نحن نسمع ونرى وندرك، صامتون؛ لكنّنا نُسبِّح بحمدك[٣].

جاء في الخبر أنّ جماعة من الطيور مرّت من أمام الإمام السجّاد عليه السلام، فنظر إلى من حوله وقال، إنّ الطيور لتسبّح الله تعالى كلّ صباح وتسأله رزقها[٤]. وقال رسول الله ﷺ: **«ما من طير يُصاد في برٍّ ولا بحرٍ ولا يُصاد شيء من الوحوش إلا بتضييعه التسبيح»**[٥].

يقول بعضٌ إنّ المراد من تسبيح الموجودات وسجودها هو المعنى المجازي. فكما أنّ الصورة تشهد على ذوق الفنان، وكما أنّ الشِّعر يشهد على قريحة الشاعر، فإنّ هذا البناء العجيب للموجودات يشهد على علم الله تعالى وقدرته وحكمته ودقته، وينفي

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٤٤٤.
(٢) تفسير نور الثقلين. ج ٣، ص ١٦٨.
(٣) شعر فارسي.
(٤) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٢٠٦.
(٥) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦١٣.

عنه كلّ عيب ونقص، وهذا هو معنى التسبيح. ولا يبدو لنا أنّ هذا التفسير صحيح، ودليلنا على ذلك:

أولا: لا يوجد أيّ شاهدٍ أو دليلٍ على هذا المعنى.

وثانيًا: نستطيع التأويل والتحليل عندما يكون المعنى الظاهريّ للفظ أمرًا محالًا، نظير: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ إذ من المحال أن يكون لله تعالى يد، لذلك نقول إنّ المراد من اليد هو يد القدرة الإلهيّة، ولا يحقّ لنا التأويل وصرف معنى الآية عن ظاهرها، لمجرّد أنّنا لا نستطيع فهم المعنى الظاهريّ أو تصوّره. فكيف يمكننا التأويل والقرآن يصرّح ويقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾[1]. كيف يحقّ لنا التأويل والقرآن يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[2].

نقرأ في القرآن الكريم- تكرارًا- قوله تعالى على لسان رسول الله ﷺ وهو أعلم الخلق، وباب الله تعالى: ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ﴾[3]، أي **«لست أعلم»**. فأين المشكلة في أن نتواضع قليلًا ونقول: **«لسنا نعلم»**؟! اللافت أنّ المولى تعالى يُحدّثنا عن جهلنا وعدم علمنا بصراحة متناهية: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾، غير أنّ غرور الإنسان يمنعه من الاعتراف بالجهل بأسرار الوجود. فليكن

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٣) هذه الجملة تكررت في القرآن ٤ مرّات، من جملتها سورة الأنبياء: الآية ١٠٩.

تسبيح الموجودات سرًّا من هذه الأسرار التي نجهلها. ألم يصرّح القرآن بأنّ الهدهد أحاط علمًا بما لم يُحط به سليمان بنفسه، واطّلع على مملكة سبأ وملكتهم بلقيس، وعلم أنهم يعبدون الشمس، وأخبر سليمان بذلك. يقول تعالى وهو يُحدِّثنا عن قصة علم الهدهد واطلاعه: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[1]. فأين الهدهد الذي يطير في السماء من الأرض التي عليها مملكة سبأ؟ كيف أدرك وميّز الرجل من المرأة؟ الملكة من الرعية؟ عبادة القوم للشمس والشرك والتوحيد و...؟ لا شكّ في أنّ كلّ ذلك علامة الإدراك والشعور عند الموجودات.

يُحدّثنا القرآن الكريم عن النملة التي أنذرت قومها: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2]. كيف أدركت هذه النملة كلّ ذلك؟ إنّ في هذه الآيات التي تتحدّث فيها النملة عن حركة الإنسان واسمه «سليمان» وجيشه، وعدم شعورهم بوجود النمل تحت أقدامهم، وإشفاق النملة على قومها من الموت والهلاك، ذلك كلّه من المؤشّرات التي

(١) سورة النمل: الآية ٢٢ – ٢٤.

(٢) سورة النمل: الآية ١٨.

تهدينا إلى إدراكات الوجود والموجودات وشعورها، فإذا قبلنا هذا الشعور والإدراك الوارد في النص القرآني، والذي يجب أن نقبله، بعد ذلك لا يبقى لزوم لمزيد من البحث والتبرير والتحليل حول مسألة تسبيح الموجودات.

القنوت

القنوت في اللغة يُطلق على معانٍ عدّة: الدعاء والطاعة والسكون والقيام في الصلاة، والإمساك عن الكلام، وذُكِرت له معانٍ أخرى كالخشوع، والعبادة، والقيام، قال الجوهري: القنوت الطاعة[1]. بناءً عليه فالقنوت يعني الطاعة مع الخضوع، كما جاء في خطاب المولى تعالى لمريم: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ ﴾[2]. والقنوت في الصلاة هو الدعاء أثناء الصلاة في الركعة الثانية، وهو سنّة كما ورد في الروايات. قال الإمام الصادق في تفسير الآية: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾: إنّ التبتُّل هو رفع اليدين في الصلاة (للدعاء)[3]. والتبتّل في اللغة يعني الانقطاع إلى الله تعالى وحده وقطع الرجاء من غيره، فكأنّه يقول بلسان حاله لمحقّق رجائه وآماله: انقطعت إليك وحدك لما أنت أهله من الألوهية[4].

(١) انظر: بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ١٩٥.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٣.
(٣) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٩١٢.
(٤) انظر: مفردات الراغب، كذلك: ابن فهد الحلّي، عدة الداعي، ص ١٨٤.

يوصينا القرآن الكريم، فيقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[1].

قال الإمام الرضا عليه السلام: «**إنّما تُرفع اليدان بالتكبير؛ لأنّ رفع اليدين ضرب من الابتهال والتبتُّل والتضرُّع فأحبّ الله عزّ وجلّ أن يكون العبد في وقت ذكره متبتلًا متضرّعًا مبتهلًا، ولأنّ في رفع اليدين إحضار النية وإقبال القلب**»[2]. فالإنسان الفقير والمحتاج يرفع يديه إلى السماء، ويتوجّه إلى الربّ الغنيّ، ويطلب حاجاته منه وحده، ويقطع قلبه عمّن سواه.

صحيح أنّ القنوت في الصلاة كلّها مستحبّ، غير أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام أكّدوا على الإتيان به وأوصوا الناس بذلك، ففي رسالة للإمام الرضا عليه السلام كتبها إلى المأمون في شرائع الدِّين قال عليه السلام: «**والقنوت سنّة واجبة في الغداة والظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة**»[3]. ومراد الإمام من وصف هذه السنّة بالواجبة هو التأكيد على هذه السنّة وأهميتها. والجدير ذكره هنا، أنّ المصلّي في حال نسي القنوت قبل الركوع، فمن المستحبّ الإتيان به بعد الركوع قضاءً، وإذا تذكّر أثناء السجود، فإنه يقضيه بعد السلام.

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٥.
(٢) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٧٢٧.
(٣) بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ١٩٧.

ورد في آداب القنوت: أنّه يُستحبّ رفع اليدين فيه تلقاء وجهه مبسوطتين، يستقبل ببطونها السماء، وبظهورها الأرض، ويجمع أصابع يديه ما عدا الإبهام، فيفرق به عن الأصابع، ويُستحبّ النظر إلى الكفّ حال القنوت، ورفع الصوت بالدعاء على أن لا يسمعه إمام الجماعة[1]. أمّا بالنسبة إلى الدعاء أثناء القنوت، فللمصلّي أن يقرأ أي دعاء شاء؛ إذ ليس هناك دعاء خاصّ بالقنوت، وليس بالضرورة أن يكون باللغة العربية، ويمكنه أن يطلب حاجاته، ويدعو لنفسه وللمؤمنين و... غير أنّ الأولوية والفضيلة في القنوت لقراءة القرآن والأدعية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

القنوت في الصلوات الأخرى:

عدد القنوت في الصلوات المختلفة ليس واحدًا، فالصلوات الخمس الواجبة، في كل صلاة قنوتٌ واحدٌ في الركعة الثانية وقبل الركوع، أمّا صلاة الجمعة وهي ركعتان، ففيها قنوتان، الأوّل قبل الركوع في الركعة الأولى، والثاني بعد الركوع في الركعة الثانية. وأمّا صلاة عيدي الفطر والأضحى، فهي ركعتان وتسعة قنوتات (خمسة متوالية) قبل الركوع في الركعة الأولى أربعة متوالية، في الركعة الثانية. بالطبع ورد لقنوت صلاة العيدين دعاءٌ خاص. والقنوت في صلاة الآيات، وهي ركعتان، في كلّ ركعة ركوع خمس مرّات،

(١) انظر: مسائل القنوت في توضيح المسائل، وبحار الأنوار، ج ٨٢، ص ٢٠٤، وكذلك: الميرزا القمي، غنائم الأيام، ج ٣، ص ٣٩: «آداب القنوت».

ويستحبّ القنوت فيها قبل الركوع (الثاني، والرابع، والسادس، والثامن، والعاشر) علمًا أنّ قنوتًا واحداً قبل الركوع العاشر يجزي. والقنوت في صلاة الوتر (وهي آخر ركعة من صلاة الليل) يستحبّ للمصلّي أن يطيل القنوت فيها. وقد ورد في ذلك أدعية كثيرة، منها أن تقول: (٧٠ مرّة أستغفر الله ربّي وأتوب إليه) و(٣٠٠ مرّة العفو) والدعاء لأربعين مؤمنًا. أمّا صلاة الاستسقاء، فهي كصلاة العيد، في الركعة الأولى يقنت المصلّي خمس مرّات، وفي الثانية أربعة.

على أنّه يُستحبّ للمصلّي أن يُطيل القنوت، فعن الإمام الصادق عليه السلام عن أبي ذرّ سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أيّ الصلاة أفضل، قال صلى الله عليه وآله وسلم: طول القنوت، وقال: أطولكم قنوتاً في دار الدنيا أطولكم راحة يوم القيامة في الموقف**»[١].

قنوت أولياء الله (المعصومين):

جاء في الخبر أنّ سبب إسلام عبد الله بن مسعود ما رآه من صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ عليه السلام وخديجة وقنوتهم في مكة عند الكعبة[٢].

نقرأ في زيارة آل ياسين: «**السلام عليك حين تُصلّي وتقنت**»، وهو السلام المقصود به الإمام صاحب العصر عجل الله فرجه. كما وينقل عن أئمة أهل البيت أدعية مطوّلة في القنوت، لا يسعنا إيرادها

(١) بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ١٩٩. وأمالي الصدوق.
(٢) بحار الأنوار، ج ٣٨، ص ٢٨٠.

في هذا الكتاب[1]؛ لكن كلّ العجب أنّ المسلمين قد عطّلوا هذه السنّة مع عظيم بركاتها وأهمّيتها، وقد ورد أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجميع الصحابة كانوا يقنتون أثناء الصلاة؛ ألم يكن عليّ عليه السلام وجميع الخلفاء يقنتون؟![2].

من المستحبّ المؤكّد أن يدعو المؤمن في قنوته لغيره من المسلمين، ولا يُفكِّر فقط في نفسه وحاجاته؛ فهذه سيّدة نساء العالمين فاطمة عليها السلام كانت تدعو للمؤمنين والمؤمنات بأسمائهم. قال الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: رأيت أمي فاطمة قامت في محرابها ليلة جمعتها فلم تزل راكعة ساجدة حتى اتّضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتُسمّيهم وتُكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت لها: يا أمّاه لِمَ لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: **«يا بنيّ الجار ثم الدار»**[3]. والله تعالى وعد المؤمنين، أنّه من دعا لغيره من المؤمنين، استجاب الله لحاجاته أيضاً.

في ختام البحث عن القنوت، نُشير إلى أنّه يجوز للمؤمن أن يدعو في قنوته على الكفرة والمنافقين. فكما أنّه يجوز الدعاء للمؤمنين، كذلك يجوز الدعاء على الكافرين، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) انظر: بحار الأنوار، وسائل الشيعة، الكافي وغيرها من الكتب والمراجع.
(٢) انظر: بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ٢٠٠.
(٣) علل الشرائع، ج ١، ص ١٨٢، باب ١٤٥. وروضة الواعظين، ص ٣٢٩.

دعا في قنوته لقوم بأعيانهم، وعلى آخرين بأعيانهم. عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**... نعم فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد قنت ودعا على قوم بأسمائهم وأسماء آبائهم وعشائرهم، وفعله عليّ عليه السلام من بعده**»[1].

(١) بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ٢٠٢.

التشهُّد والتسليم

التشهُّد:

وهو واجب من واجبات الصلاة، تبطل الصلاة بتركه عمدًا لا سهوًا، والواجب فيه قول: «**أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ على محمّد وآل محمّد**»[1]. ويجب التشهّد في الركعة الثانية بعد رفع الرأس من السجدة الثانية، وفي الركعة الأخيرة من الصلاة بعد رفع الرأس من السجدة الأخيرة.

في التشهُّد نشهد بوحدانية الله تعالى وبرسالة النبيّ الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. صحيح أنّنا نشهد بهذين الأمرين مرارًا وتكرارًا في الأذان والإقامة، لكن تلك الشهادة تكون في الشروع في الصلاة في (الأذان والإقامة)، أمّا هذه الشهادة فهي عند الخروج من الصلاة والانتهاء منها. والتأكيد على هذا التكرار في الشهادة هو من باب الحكمة؛ لأنّ الإنسان سريع الغفلة والنسيان، فهو يغفل عن وليّ نعمته وينسى فضله، وهذه الجمل (الشهادة) هي بمثابة

(١) انظر: الإمام الخميني، تحرير الوسيلة، ج ١، ص ١٨٠.

حبل النجاة الذي يحفظ سفينة الإنسان من الأمواج والحوادث والانحراف، لتوصله إلى برّ الأمان الإلهي.

سمات التوحيد:

«لا إله إلا الله»: الشعار الأوّل لجميع الأنبياء والرسل.

«لا إله إلا الله»: هي الشهادة التي أقرّ بها جميع أصحاب العلم والملائكة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

«لا إله إلا الله»: هي الشهادة التي يسمعها كلّ مولود مسلم في أذنه عندما يأتي إلى الدنيا حديثاً، وكلّ إنسان مسلم عند وفاته، حين تُلقى له عند تشييعه وفي قبره.

«لا إله إلا الله»: أحبّ الكلمات إلى الله تعالى، وأثقل عمل في الميزان.

«لا إله إلا الله»: حصن الله المنيع، الذي من دخل إليه أمن من عذابه، فعن الإمام الرضا عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **«قال رسول الله يقول الله عزّ وجلّ: «لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي»**[2].

«لا إله إلا الله»: هي الحدّ الفاصل بين الكفر والإسلام، فمن قالها دخل في حياض الإسلام وأمنه. جاء في الروايات والتفاسير

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨.
(٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٣.

أنّ رسول الله حين عاد من واقعة خيبر بعث أسامة بن زيد مع جمع من المسلمين إلى يهود كانوا يسكنون في قرية فدك، من أجل دعوتهم إلى الإسلام أو الإذعان لشروط الذمة، وكان مرداس اليهودي، وهو أحد الذين عرفوا بقدوم جيش الإسلام، قد أخذ أمواله وأولاده ولجأ بهم إلى أحد الجبال، هبَّ لاستقبال المسلمين وهو يشهد بوحدانية الله ورسالة النبي ﷺ، وقد ظنّ أسامة بن زيد أنّ هذا اليهودي يتظاهر بالإسلام خوفًا على نفسه وحفظًا لماله وأنه لا يبطن الإسلام في الحقيقة، فعمد أسامة إلى قتل هذا اليهودي واستولى على أغنامه، وما إن وصل نبأ هذه الواقعة إلى النبيّ ﷺ حتى تأثّر تأثّرًا شديدًا؛ وعاتبه على فعلته تلك، فاعتذر أسامة وقال: إنّما قالها (أي الشهادة) تعوّذًا بها من القتل. قال: فمن لك بها يا أسامة؟ قال أسامة: فوالذي بعثه بالحقّ ما زال يُردّدها عليّ حتّى لوددت أنّ ما مضى من إسلامي لم يكن، وأنّي كنت أسلمت يومئذٍ وإنّي لم أقتله. وإلى ذلك تشير الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾[1]؛ إذ ورد أنّها نزلت في هذه الحادثة[2].

(١) سورة النساء: الآية ٩٤.

(٢) تفسير الأمثل، ج ٣، ص ٣٩٦- ٣٩٧.

«لا إله إلا الله»: شعار المسلمين عند عبور الصراط يوم القيامة[1].

نقرأ في السيرة أنّ رسول الله ﷺ في بداية دعوته قال لعمّه أبي طالب في ردّه على قريش، لمّا عرضوا عليه الملك والمال، على أن يترك الرسالة: **«لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما أردته ولكن يعطوني كلمة يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم، ويكونون ملوكًا في الجنة. فقال لهم أبو طالب عليه السلام ذلك، فقالوا: نعم وعشر كلمات. فقال لهم رسول الله ﷺ: تشهدون أن لا إله إلا الله وإنّي رسول الله. فقالوا: ندع ثلاثمئة وستين إلهًا ونعبد إلهًا واحدًا؟»**[2].

في بابٍ آخر، إذا ألقينا نظرة إلى دعاء يوم عرفة للإمام الحسين عليه السلام، وخطبة الإمام السجّاد عليه السلام في الشام بعد شهادة أبيه الإمام الحسين عليه السلام، فإنّ هذه الحقيقة سوف تتضح أكثر، وأنّ أولياء الله تعالى يعرفون هذه الشهادة بحقٍّ، ويقرّون بها بكلّ وجودهم وجوارحهم، وأنّ الأرض والسماء تشهد على ذلك.

وفي التشهُّد لا نكتفي بقول: **«لا إله إلا الله»**، بل نقول: **«وحده لا شريك له»** أي ليس له أيّ شريك، لا في الخلق ولا في التدبير ولا في

(١) جامع الأحاديث، ج ١، ص ١٨٨.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٤٤٣.

التشريع: «**ولم يكن له شريك في الملك**»[1]. ليس هذا فحسب، بل إنّ العبودية له سبحانه أكبر فخرٍ لأوليائه: «**كفى بي فخرًا أن أكون لك عبدًا**».

إنّ العبودية لله تعالى تساوي حرّية الإنسان وتُعادلها؛ حريّته من جميع القيود والتعلّقات، فهي تمنح الإنسان القدرة على مواجهة جميع القوى والطواغيت، كما حصل لامرأة فرعون التي لم تخضع للمال والسلطة والقصور والذهب، لم يُغرِها ذلك كلّه؛ بسبب عبوديّتها لله تعالى وإقرارها بتوحيده؛ لأنّ العبودية منحتها القوّة مقابل سلطة فرعون وماله، فرعون الذي استطاع أن يستعبد الجميع، إلا هذه المرأة المؤمنة التي صارت أمثولة ونموذجًا يُحتذى لنساء العالم ورجاله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

التوحيد الخالص:

من الابتلاءات التي تعرض لأكثر الذين يعبدون الله تعالى اليوم، أنّهم يقولون بألسنتهم: «**لا إله إلا الله**»؛ لكنّهم عمليًّا يهيمون في وادٍ آخر، يتّبعون غير الله تعالى في العمل، يطلبون العزّة والقدرة من غيره سبحانه، يطيعون غيره، ويُحبّون غيره. والحقيقة هي

(١) سورة الإسراء، الآية: الأخيرة.
(٢) سورة التحريم: الآية ١١.

أنّ الشرك ظلمٌ عظيمٌ، وجرأةٌ على مقام الألوهيّة المقدّس، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾[1].

الشهادة بالرسالة:

«وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله»:

نُشير بداية إلى أنّ الشهادة بعبوديّة الرسول الأكرم ﷺ مقدَّمة على الشهادة برسالته، وفي ذلك درسٌ لنا وبيانٌ. فالشهادة برسالة الرسول الأكرم ﷺ تعني نفي جميع التعاليم والمدارس البشريّة، والتسليم بخلود رسالته وعالميّتها وخاتميّتها، وتعني كذلك التمرّد على الطواغيت وحكوماتهم الظالمة. والشهادة برسالة النبيّ محمّد ﷺ عهد وميثاق أخذه المولى تعالى من جميع الأنبياء منذ آدم عليه السلام، وهذا الإقرار شرط النبوة: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾[2]، فليس نحن البشر العاديّون فقط نقرّ ونقول: **«أشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله»** بل سبقنا الأنبياء إلى الإقرار برسالة النبيّ ﷺ ونبوّته.

بناءً عليه، فإنّ العبوديّة أعلى مقام للأنبياء، لا بل هي مقدِّمة الرسالة والنبوّة: **«عبده ورسوله»**. العبودية هي التي كانت سببًا

(١) سورة لقمان: الآية ١٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨١.

لعروج النبيّ ﷺ إلى حيث بلغ سدرة المنتهى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[1]، ونزول الوحي: ﴿نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[2]. وفي موضعٍ آخر نجد أنّ المولى تعالى يُثني على أنبيائه بعبوديّتهم، فيقول في شأن نبيّه نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[3]. أمّا في شأن داود عليه السلام فقال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾[4].

ما يُميّز الأنبياء عن النوابغ والمخترعين، هو أنّ نبوغ هؤلاء بسبب الذكاء وعلى أثر المثابرة والتجربة، أمّا معجزات الأنبياء فكانت بسبب العبودية وعلى أثرها، وحدثت في ظلّ ألطاف الله تعالى؛ فالعبودية منشأ جميع مقامات الأنبياء. إنّ الإقرار بالعبودية تمنعنا من كلّ أنواع الغلوّ والإفراط والتطرّف في ما يتعلّق بمقامات أولياء الله سبحانه، لنعلم أنّ النبيّ الأكرم ﷺ الذي هو أفضل خلق الله، هو عبد لله تعالى.

ولا شكّ في وجوب الإقرار بالرسالة بصدقٍ وبعد قناعة وإيمانٍ، أمّا الإقرار باللسان فلا نفع فيه، فالمنافقون كانوا يشهدون برسالة النبي الأكرم ﷺ، وفي هذا الباب يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[5].

(١) سورة الإسراء: الآية ١.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٣.
(٤) سورة ص: الآية ٣٠.
(٥) سورة المنافقون: الآية ١.

الصلاة على محمّد ﷺ:

بعد الشهادة بالتوحيد وإعلان الإيمان بالرسالة، نُصلّي على النبيّ محمّد ﷺ مباشرة، فالصلاة دليل المحبّة والمودّة والوفاء لنبيّ الإسلام وآله صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، وهي أمرٌ مطلوبٌ من كلّ مسلم، فقد طلب الله تعالى من رسوله أن يُعلن زهده في الأجر على الرسالة وعدم المطالبة إلا بمودّة ذوي قرباه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[1].

إنّ الصلاة على النبيّ ﷺ مؤونة الدنيا والآخرة، وهي باب قبول الدعاء[2]، وهي تُذهب بالنفاق، وتُجلّي القلوب من الصدأ، وتفتح أبواب السماء، ومن صلّى على محمّد وآله استغفرت له الملائكة[3]، وقُضيت حاجاته، وفتح الله عليه بابًا من العافية، وغُفرت ذنوبه، ووجبت له شفاعة النبيّ الأكرم ﷺ[4]. وعن رسول الله ﷺ قال: **«ومن كان آخر كلامه الصلاة عليّ وعلى عليّ دخل الجنة»**[5].

فها هو الله تعالى في القرآن الكريم يُصلّي على نبيّه، أولًا، ثمّ يأمرنا بالصلاة عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[6].

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.
(٢) الكافي، ج ٢، ص ٤٩٢.
(٣) مرآة العقول، ج ١٢، ص ١٠٩.
(٤) انظر: بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٥٨، باب من صلى على محمد وآل محمد.
(٥) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١٢١٦.
(٦) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

نقاط للتأمّل والاعتبار:

الصلاة احترامٌ لفظيٌّ باللسان؛ لكن الأهم من ذلك الطاعة العملية، وهذه الأخيرة هي ما تُشير إليه عبارة «وسلّموا تسليمًا».

صلوات الله والملائكة على النبيّ دائمةٌ، لا انقطاع لها، وذلك أنّ الله يستخدم الفعل «يُصلّون» بصيغة المضارع الذي يدلّ على الاستمرار.

صلوات الله على محمّد ﷺ كرامةٌ، وصلوات الملائكة رحمةٌ، وصلوات الناس دعاء.

جاء في الرواية أنّ موسى ناجاه الله تبارك وتعالى فقال له في مناجاته وقد ذكر محمّدًا ﷺ: «فصلّ عليه، يا ابن عمران فإنّي أُصلّي عليه وملائكتي»[1]. قال رسول الله ﷺ: «ذكر الله عزّ وجلّ عبادة، وذكري عبادة، وذكر عليّ عبادة، وذكر الأئمة من لدنا عبادة»[2].

الصلاة تُثقل الميزان يوم القيامة. ورد كذلك في الحديث الشريف: «ما من دعاء إلا وبينه وبين السماء حجاب حتّى يُصلّي على محمّد وآل محمّد، وإذا فعل ذلك انخرق الحجاب، فدخل الدعاء، وإذا لم يفعل ذلك لم يرفع الدعاء»[3]. على أنّ الصلوات على محمّد وآل

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٠٥.
(٢) بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٦٩.
(٣) بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٦٤.

محمّد ليست فقط بالذكر واللسان، بل في الكتاب والقرطاس أيضًا. فقد ورد عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «من صلّى عليّ في كتابٍ لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب»[1].

كيفيّة الصلاة على النبيّ ﷺ:

ورد في كتب أهل السنّة ومصادرهم المعتبرة أنّ الصلاة التامّة على النبيّ ﷺ هي الصلاة التي يُذكر فيها آله ويُصلّى عليهم معه، وإلا تكون صلاة بتراء على حدّ تعبير الأخبار الواردة في هذا المجال. جاء في كتاب الغدير: «ذكر ابن حجر في الصواعق المحرقة ص ٨٧ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، وروى جملة من الأخبار الصحيحة الواردة فيها وأنّ النبيّ ﷺ قرن الصلاة على آله بالصلاة عليه لمّا سُئِل عن كيفية الصلاة والسلام عليه، ثم قال: وهذا دليلٌ ظاهرٌ على أنّ الأمر بالصلاة على أهل بيته وبقية آله مرادٌ من هذه الآية، وإلا لم يسألوا عن الصلاة على أهل بيته وآله عقب نزولها ولم يجابوا بما ذكر، فلمّا أجيبوا به دلّ على أنّ الصلاة عليهم من جملة المأمور به، وأنّه صلّى الله عليه وآله أقامهم في ذلك مقام نفسه؛ لأنّ القصد من الصلاة عليه مزيد تعظيمه ومنه تعظيمهم، ومن ثم لمّا دخل من مرّ في

(١) بحار الأنوار، ج ٩١، ص ٧١.

الكساء قال: اللهمّ إنّهم منّي وأنا منهم فاجعل صلاتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك عليّ وعليهم. وقضية استجابة هذا الدعاء: إنّ الله صلى عليهم معه فحينئذ طلب من المؤمنين صلاتهم عليهم معه. ويروى: لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء. فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون: اللهم صلِّ على محمّدٍ وتُمسِكون، بل قولوا: اللهم صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد»[1].

ومن ذلك ما جاء أيضًا في الدرّ المنثور عن صحيح البخاري ومسلم وأبي داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة، وهي أهمّ كتب السنة ومصادرهم. نقلوا أنّه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: **«قد علمنا كيف نُسلّم عليك يا رسول الله، فكيف نصلّي عليك؟ قال: قولوا اللهم صلِّ على محمّدٍ وآل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد»**[2].

وهذا المطلب يُنظِّمه الإمام الشافعي شعرًا فيقول:

يـا أهـل بيـت رسـول الله حبّكم
فـرض مـن الله فـي الـقـرآن أنـزلـه
كـفـاكـم مـن عـظـيـم الـقـدر أنّـكـم
مـن لـم يـصـلِّ عليكم لا صـلاة لـه[3].

---

(١) الشيخ عبد الحسين الأميني، الغدير، ج ٢، ص ٣٠٢- ٣٠٣. أخرجه أحمد في مسنده، ج ٦، ص ٣٢٣.

(٢) نقلا عن: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ٣٦٥؛ وصحيح البخاري، ج ٦، ص ١٥١، باب الصلاة على النبي؛ ومسند أحمد، ج ٥، ص ٣٥٣.

(٣) الغدير، ج ٢، ص ٣٠٣.

وذكر الآل في الصلاة على النبيّ ﷺ له دلالاته، ومنها أنّ هؤلاء الأشخاص لهم مكانة ممتازة ليست لسواهم، ومنها أنّ هؤلاء لهم دورهم في متابعة مسيرة النبيّ ﷺ في مقام الهداية والإرشاد للناس بعده، ولولا ذلك لما استحقّوا هذا التكريم، ولكان ذكرهم لغوًا.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**سمع أبي رجلًا متعلّقًا بالبيت وهو يقول اللهم صلِّ على محمّد فقال له أبي عليه السلام: لا تبترها لا تظلمنا حقّنا قل: اللهم صلِّ على محمّد وأهل بيته**»[1].

وورد عن رسول الله ﷺ قوله: «**من أراد التوسّل إليّ وأن تكون له عندي يد أشفع له بها يوم القيامة فليصلِّ على أهل بيتي ويُدخل السرور عليهم. ومن قال صلّى الله على محمّد ولم يُصلِّ على آله لم يجد ريح الجنة**»[2].

ويُروى عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله ﷺ: ما من قوم اجتمعوا في مجلس فلم يذكروا اسم الله عزّ وجلّ ولم يُصلّوا على نبيّهم إلا كان ذلك المجلس حسرةً ووبالًا عليهم**»[3]. وقد وصف رسول الله ﷺ من لم يُصلّ عليه بأبخل الناس، فقال: «**البخيل حقًّا من ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ**»[4].

(١) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١٢١٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١٢١٩.
(٣) الكافي، ج ٢، ص ٤٩٧.
(٤) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١٢٢٠.

ونختم هذا البحث برواية وردت عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم لأمير المؤمنين ألا أُبشِّرك؟ قال بلى (إلى أن قال) أخبرَني جبرائيل أنّ الرجل من أمّتي إذا صلّى عليّ وأتبع بالصلاة على أهل بيتي فُتحت له أبواب السماء وصلّت عليه الملائكة سبعين صلاة وإنّه للذنب حطًّا ثم تحات عنه الذنوب كما يتحات الورق من الشجر. ويقول الله تبارك وتعالى لبّيك عبدي وسعديك يا ملائكتي أنتم تُصلّون عليه سبعين صلاة وأنا أُصلّي عليه سبعمئة صلاة وإذا صلّى عليّ ولم يتبع بالصلاة على أهل بيتي كان بينها وبين السماوات سبعون حجابًا ويقول الله تبارك وتعالى: لا لبّيك ولا سعديك يا ملائكتي لا تصعدوا دعاءه إلا أن يُلحق بالنبيّ عترته فلا يزال محجوبًا حتّى يلحق بي أهل بيتي»[1].

السلام

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[2].

بعد ذكر الصلاة على محمّد وآل محمّد، نُسلّم ثلاث تسليمات: واحدة على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والثانية على أنفسنا وعلى أولياء الله تعالى، والثالثة على المؤمنين.

نحن مأمورون بالتسليم على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد الصلاة عليه، فنقول: «السلام عليك أيُّها النبيّ ورحمة الله وبركاته». وهنا إشارة لطيفة،

(١) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١٢٢٠.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

فبما أنّ الصلاة عروج الروح إلى السماء، فإنّه بتكبيرة الإحرام (في بداية الصلاة) ننقطع عن الخلق، ونلتحق بالخالق، وكأنّنا في نهاية الصلاة، نهبط من السماء، فنسلّم بداية على خير الخلق محمّد ﷺ، وبعد ذلك ننتقل لنُصلّي على أنفسنا وعلى عباد الله الصالحين، فنقول: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»؛ وهذه العبارة تشمل جميع الأنبياء والأوصياء والأولياء والأئمة المعصومين؛ لأنّ المولى تعالى أيضًا يُسلّم على أنبيائه وأوليائه، فنقرأ في القرآن الكريم: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1]، و﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾[2]، و﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[3]، و﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[4].

في الدِّين الإسلامي نرتبط بعباد الله الصالحين برابطة الإيمان العميقة، هذه العلاقة والرابطة تتعدّى حدود المكان والزمان، رابطة مع جميع الصالحين والأولياء والطاهرين في كلّ زمان وعصر ومكان.

بعد ذلك، نُصلّي على المؤمنين في الزمان الحاضر، فنُسلّم على المسلمين الحاضرين في صلاة الجماعة، والذين هم معنا في صفٍّ واحدٍ في الجماعة، ونُسلّم على الملائكة الحاضرين في جمع المسلمين، وعلى الملكين المكلّفين بكلّ واحدٍ منّا، فنقول: «**السلام**

(١) سورة الصافات: الآية ١٨١.
(٢) سورة الصافات: الآية ٧٩.
(٣) سورة الصافات: الآية ١٠٩.
(٤) سورة الصافات: الآية ١٢٠.

عليكم ورحمة الله وبركاته». فالصلاة تبدأ باسم الله، وتنتهي بالسلام على خلق الله.

ومن الملاحظ أنّ التسليم تُراعى فيه التراتبيّة والمقامات؛ إذ نبدأ بالسلام على أشرف خلق الله رسول الله ﷺ، ثمّ من يليه في الرتبة والمقام إلى أن نصل المؤمنين المحيطين بنا.

سمات السلام:

السلام: اسم من أسماء الله.

السلام: تحيّة أهل الجنة.

السلام: تحيّة الملائكة عند الدخول إلى الجنة.

السلام: رسالة الله الرحيم.

السلام: ضيافة ليلة القدر.

السلام: أوّل حقٍّ للمسلم على المسلم.

السلام: مفتاح كلّ كلام وكتابٍ.

السلام: رسالة أمان منً كلّ خوفٍ وشرٍّ.

السلام: من أبسط الأعمال الحسنة.

السلام: علامة التواضع.

السلام: عامل محبّة وألفة.

السلام: إظهار الصلح والمسالمة.

السلام: أوّل هدية إنسان لإنسان.

السلام: تمنّي السلامة لعباد الله.

السلام: دعوة إلى السلام العالمي.

السلام: منحة للأمل والنشاط.

السلام: ترفع الكدر من قلوب المتخاصِمين وتغسل أدارنها.

السلام: إعلان عن الحضور، وإجازة الدخول.

السلام: خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان.

السلام: الكلام الوحيد الذي يخاطب الموتى والأحياء.

السلام: علامة التعظيم والتكريم.

السلام: سبب لجلب رضا الله وسخط إبليس.

السلام: وسيلة لإدخال السرور إلى القلوب.

السلام: كفّارة للذنوب، وزيادة في الحسنات.

السلام: رسالة تُعلِّم الأنس والصداقة والمحبّة.

السلام: تمحو آثار الكبر والأنانية.

السلام: أدب إلهيّ، وأطيب الكلام.

السلام: استقبال كلّ خير، ومفتاح كلّ كلام.

السلام: كمال، وتركه بخل وتكبّر وغرور وانزواء وغضب وقطع رحم.

السلام: سحابة رحمة نظلل بها رؤوس الخلق؛ لذلك نقول «**السلام عليكم**» ولا نقول «**السلام لكم**». فقد كان رسول الله ﷺ

يُسلّم على الصبيان والصغار[١]، ولم يتركه طوال عمره. قال ﷺ: **«خمس لا أدعهن حتى الممات: ... والتسليم على الصبيان لتكون سنّةً من بعدي»**[٢].

صحيح أنّ السلام تطوّع والردّ فريضة، كما ورد عن رسول الله ﷺ[٣]، غير أنّ ثواب من بدأ السلام أضعاف ثواب الرادّ. فقد ورد في الحديث: **«للسلام سبعون حسنة، تسع وستون للمبتدي، وواحدة للرادّ، والبادي بالسلام أولى بالله ورسوله»**[٤].

ورد في آداب السلام عن رسول الله: **«يُسلِّم الصغير على الكبير، ويُسلِّم الواحد على الاثنين، ويُسلِّم القليل على الكثير، ويُسلِّم الراكب على الماشي، ويُسلِّم المارّ على القائم، ويُسلِّم القائم على القاعد»**[٥]. قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾[٦].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(١) سنن أبي داود، ج ٢، ص ٥١٩؛ والمصنف، ج ٦، ص ١٤٤.
(٢) ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٣٥٠.
(٣) الكافي، ج ٢، ص ٦٤٤.
(٤) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١١.
(٥) مستدرك الوسائل، ج ٨، ص ٣٧٢؛ والكافي، ج ٢، ص ٣٤٦.
(٦) سورة النساء: الآية ٨٦.

الفهرس

مقدّمة الجمعيّة ٥
المقدّمة ٧
ممّا يروج ثقافة الصلاة: ٨
ما يقرّب الصلاة من أعماقها: ٠١
لا تكن من هؤلاء: ١١
تمنّيات ١٢
المقدّمة : ١٥
ما هي العبادة : ١٧
فطرية العبادة: ١٧
أصل العبادة وجذورها: ٢٠
عمق العبادة: ٢٢
عدم الاكتراث بالعبادة: ٢٣
ثبات مدار العبادة: ٢٥
روحانيّة العبادة: ٢٥
الاعتدال في العبادة: ٢٦
الإدارة في العبادة: ٢٩
العبادة دواء اللّيل والنّهار: ٣٠
العبادة أصل طمأنينة القلوب: ٣١

العبادة وتلقّي المدد واللطف الإلهيّ: ٣٤
التأثير المتبادل بين الإيمان والعبادة: ٣٤
فلسفة العبادة في القرآن: ٣٥
الصلاة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام: ٣٦
آثار العبودية وبركاتها: ٣٩
سمات الصلاة: ٥٠
الصلاة وقانون العقوبات: ٥٦
العبادة والولاية: ٥٧
درجات العبادة: ٥٩
سمات العبادة: ٦١
الصلاة والقيادة: ٦٦
قداسة الصلاة: ٦٧
شموليّة الصلاة وجامعيّتها: ٦٨
في أجزاء الصلاة وأركانها ٧٩
النية ٧٩
النية الخالصة: ٧٩
قصد القربة: ٨٢
درجات القرب: ٨٣
طلب الله لذاته: ٨٥
خاطرة وعبرة: ٨٨
الكيفية، أم الكمية: ٨٨

شمولية الإسلام وجامعيّته: ٩٠
من الذاكرة: ٩١
النية وقيمة العمل: ٩٢
من الذاكرة: ٩٥
آثار النية وبركاتها: ٩٧
تقدّم النيّة على العمل: ١٠٢
مرّاتب النية: ١٠٣
دور النية في الثواب والعقاب: ١٠٥
المعرفة مقدّمة قصد القربة: ١٠٦
آثار النية الفاسدة: ١٠٧
قصة وعبرة: ١١٠
تكبيرة الإحرام **١١١**
الله أكبر: ١١١
الله أكبر ١١١
التكبير في غير الصلاة اليوميّة: ١١٣
التكبير في الثقافة والتاريخ الإسلامي: ١١٤
كيف نكبر في الصلاة؟ ١٢٠
معنى التكبير: ١٢٠
سورة الحمد: ١٢٣
ملامح الدروس التربوية في سورة الحمد: ١٢٤
لماذا البدء بالبسملة؟ ١٢٨
بحث: هل البسملة جزء من السورة؟ ١٢٨
دروس وتعاليم من وحي البسملة: ١٣٠

كلمة اللّه: ١٣١
الحمد للّه ربّ العالمين: ١٣٤
الحمد للّه: ١٣٤
ربّ العالمين: ١٣٥
الرحمن الرحيم: ١٣٨
مالك يوم الدِّين: ١٤٠
كلمة الدِّين: ١٤١
إيّاك نعبد وإيّاك نستعين: ١٤٣
ما هو الصراط المستقيم؟ ١٤٩
صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين: ١٥٦
من هم المغضوب عليهم، ومن هم الضالّين؟ ١٥٧
سورة التوحيد ١٦١
أهمّية سورة التوحيد: ١٦١
قل هو اللّه أحد: ١٦٣
اللّه الصمد: ١٦٧
لم يلد ولم يولد: ١٦٨
ولم يكن له كفواً أحد: ١٧٠
الركوع والسجود ١٧٥
الركوع: ١٧٥
آثار الركوع: ١٧٦
آداب الركوع: ١٧٧
ركوع أولياء اللّه: ١٧٨
السجود ١٧٩
أهمية السجدة: ١٨٠

في السجدة رموز وأسرار: ١٨٥
آداب السجدة: ١٨٧
السجود على تربة كربلاء: ١٨٧
سجدة الشكر: ١٨٩
بركات سجدة الشكر: ١٩١
سجود أولياء الله: ١٩٢
بضع نقاط للتأمّل: ١٩٤
ذكر التسبيح ١٩٧
سبحان الله: ١٩٧
مقام التسبيح: ١٩٧
سبحان الله: ١٩٨
سبحان الله: ١٩٨
سبحان الله: ١٩٩
سبحان الله: ١٩٩
سبحان الله: ١٩٩
ثواب التسبيح: ٢٠٠
التسبيح العمليّ: ٢٠١
تكرار التسبيح: ٢٠٢
ذكر الله في ثقافة الآباء والأبناء: ٢٠٢
تسبيح الموجودات: ٢٠٤
القنوت ٢٠٩
القنوت في الصلوات الأخرى: ٢١١
قنوت أولياء الله (المعصومين): ٢١٢
التشهُّد والتسليم ٢١٥

التشهُّد: ٢١٥
سمات التوحيد: ٢١٦
التوحيد الخالص: ٢١٩
الشهادة بالرسالة: ٢٢٠
الصلاة على محمّد ﷺ: ٢٢٢
نقاط للتأمّل والاعتبار: ٢٢٣
كيفيّة الصلاة على النبيّ ﷺ: ٢٢٤
السلام ٢٢٧
سمات السلام: ٢٢٩

هذا المتن «كتاب شامل مبسط يبين أبعاد الصلاة وفوائدها، منافعها وآثارها بأسلوب سلسى يتناسب مع الأذواق المختلفة، وينتفع به ذوو المستويات المتفاوتة،كما أنه يجمع بين أبعاد الصلاة الروحية، التربوية، الاجتماعية وغيرها، مضافا إلى اشتماله على بيان معانيها .

كما إنه يتدرج في العرض لمطالبه من بيان مقدمة حول العبادة والعبودية ليتعرض تفصيلا بالنحو المناسب لكل واجبات الصلاة وأجزائها، كما يتميز بطريقة العرض الشيقة التي تأخذ القارئ إلى عمق المعنى».

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org

1018012
printed by 00961 3 336218
designed by fekra graphics